رسائلي إليك

شيماء علي جمال الدين

رسائل أدبية



دار البشير

رسائلي إليك

شيماء علي جمال الدين

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: ١٧٠٩١ / ٢٠٢١

التوزيع

القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: 01012355714 - 01152806533

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

***

إهداء

إلى هؤلاء الذين يُعْييهم الصّمت، ويُشْقيهم الكلام..

إلى مَن يُتعبهم الواقعُ، وملّوا من الأحلام..

إلى هؤلاء الذين أمْعنوا بصائرَ الرّوح ما استطاعوا ليتحرّوا الحلالَ ويجتنبوا الحرام، أهلكتْهم معاركُهم، وتاقوا للسّلام..

سلامٌ عليهم بما صَبروا، هداهم ربّهم سُبُلَ السلام.

رسائلي إليك؛ هي كلماتٌ تأبَى الكتمانَ، وتسْتعصي على البوْح، تمكُث في تلكَ المسافة الواقعة بينَ غيرِ المنْطوق وذاكَ الذي فاق حدّ الشعور الصّامت المُرهف.

كلماتٌ تظلّ أسيرَها، ولا تملكُ التحرُّرَ من قيْدها، فلا الحبسُ ينفعُ معها، ولا يُريحك إطلاقُ سراحها.

وكُلّ موصولٍ بالقلبِ مُخبرٌ عمّا فيه؛ إذْ تلبّس بثوب الصدقِ والإخلاص، فيُصيبُ مِن البعض شَغافَ القلوب ممّن وعَى قيمة ما كان فيه، وأُشْرب بماءِ عينِ صاحبه، أو لا يتجاوز عندَ البعض الآخر صوانَ الأذن؛ إذْ أنّ كلّ نفيسٍ عندهم مُهدَر المعْنى، ضحْل القيمة، لا يُساوي مدادَ حبْر كاتبِه، وانخلاعَ قلبِ قائله!

إلى جميع مَن أُحبّهم، ويُحبّونني.

إلى أمّي وأهلي وأصدقائي..

إلى كلّ مَن آمنَ بحرفي، وظنّ الخير بي..

إليكُم جميعًا أهدي كتابي.

واللهَ أسألُ أن يكتبَ له القبول عنده.

إليكم أعزّائي جميعًا أهدي (رسائلي إليك).

****

***القلمُ بريدُ القلب؛**

يُخبرُ بالخبَر، وينظرُ بلا نظر*[1]

ابنُ المقفّع

****

1 (أدب الكاتب)، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، ج١، ص١٤.

المقدّمة

بينَ يديّ الرسائل

أعرف أنّه مِن الواجب عليّ أن أضعَ تصنيفًا لهذا العمل، فأدْعوه (رواية)، أو (رسائل نثرية)، أو (خواطر أدبية)، أو حتّى (مذكرات شخصية)...

لكنّه مزيجٌ من هؤلاء جميعِهم، فلا ينتمي إلى أحدِها بالكلّية، ولا يتبرّأ من الأخرى في العموم.

وأستعيرُ هنا كلماتٍ للشّاعر الفرنسي (شارل بودلير)، وجدتُ أنّ فيها حيرةً تُشبه حيرتي أمامَ عملي هذا، والتي جاءتْ في مقدّمة ديوانه (سأم باريسLes pleen de paris)، قال فيها:

*صديقي العزيز، أبعثُ إليك بعملٍ مُتواضع، يمكن وصفُه من دون إجحافٍ بأنّه مِن دون بدايةٍ ولا نهاية، فكلّ شيء فيه بداية ونهاية في آن...

وأرْجو منكَ أن تتأمّل الراحةَ الرّائعة التي تمثّلها تلك التركيبة للجميع: لك ولي وللقارئ.. فكلّنا يستطيع اجتزاءَ هذه التّركيبة؛ أنا في تأمّلاتي، وأنت في المخطوطة، والقارئ في قراءته، فأنا لا أُمْسِك بالإرادة العنيدة للأجزاء من أوّلها إلى آخرها لأصنعَ حبكةً مُفتعلة. فلكَ أن تحذف الجزءَ الذي ترغبُ في حذفه، وستلتحمُ أجزاءُ الفانتازيا المتعرّجة من دون عناء، واحذفْ ما شئتَ من الشّذرات، وستجد أنّ كلّ شذرة يمكن أن تكون قائمةً بنفسها*.

رسائلي إليك.. هي كلماتٌ كُتِبَت على مَهل، وصُنِعَت على عين قلبي، استغرقتُ أعوامًا في تقصّيها، وسنواتٍ في معايشتها، وسنواتٍ حتّى قررت كتابتها.

يقول ابنُ حزم الأندلسي في خاتمةِ كتابه (طوق الحمامة):

وأنا أعلمُ أنّه سينكر عليّ بعضُ المتعصّبين عليّ تأليفي لمثل هذا، ويقول: إنّه خالفَ طريقته، وتجافى عن وجهتِه

وسردَ آياتٍ وأحاديثَ في التّحذير من سوء الظّن، ثمّ قال:

وبالجُملة، فإنّي لا أقول بالمراياة، ولا أنسك نُسكًا أعجميًّا، مَن أدّى الفرائضَ المأمور بها، واجتنبَ المحارم المنهيّ عنها، ولم ينسَ الفضل فيما بينَه وبين الناس؛ فقدْ وقع عليه اسمُ الإحسان، ودعْني ممّا سوى ذلك، وحسبي الله.

ليسَ الجهادُ وحده في حمْل أنفسنا على فعْل ما ينبغي علينا فعله، هناك الجهادُ في منْع أنفسنا عنْ فعلِ ما لا ينبغي فعلُه، بين الجهادين الكثير والكثيرُ من المشقّة. وحسبنا أنّ الأجرَ على قدر المشقّة.

***

الفصلُ الأوّل من الحكاية
أحببتُ فيلسوفًا

(أ)

لا تحاولْ أن تتناسَى جرحًا، بلِ افْهمه جيدًا لتنساه

بلزاك

كلّ شيءٍ بقيَ عالقًا في المنتصف...

ما الذي ينبغي عليَّ فعله؟

كيف يُمكنني كتابةُ رسائل إلى الراحلين؟

الرّاحلين زُهدًا، الرّاحلين هجرًا، الرّاحلين موتًا!

ليتَني ما جئتُ إليها، لكنّني جئتُ رغمًا عنّي، عندما انْهارت كلّ قواي، ولم يعدْ في وسْعي المواصلة، لم أعدْ أرغبُ في الحياة ذاتها.

لكنّ التكليفَ الذي كلّفتني به شاقّ للغاية..

أنْ أكتبَ عمّن رحلَ، فارقَ، مات..

أخبَرتني أنّ هذا لصالحي، وأنّ هذا هو الحلّ لتفريغِ النّفس من أعبائها، واستخراج أحزانها التي لم تُعاش من قبْل كما ينبغِي..

تطلبُ منّي أن أحزن؛ كي أعرف طريقَ السعادة...

إنّه طلبٌ غريب حقًّا!

تُريدُني أن أكتب رسائلَ (الماضي البعيد)

لكنّني لم أخبرها أنّي أُجيدُ كتابة الرسائل، وأنَّ قصةً أُخرى دفعتني في ذلك الحينِ إلى كتابة رسائلِ دسسْتها في (صندوقِ الذكريات)، لكنّها وضعت يدَها على هذا الجُرح تحديدًا ونَكَأته، وطلبتْ منّي أن أنزفَ دماءه على الورق.

أتُراها كانت ستطلبُه إنْ علمت منّي أنَّ ثمّة رسائلَ أخرى كُتِبَت، ولعلّ جُرحَها أكثر إيلامًا؟

أم تُراني كنتُ أعرف أثناءَ خروجي من عيادتها أنَّ جُرحًا جديدًا ثالثًا طازجًا سأنزفُه الآن، وأكتبُ رسائل (أحببت فيلسوفًا) فيها؛ حيّة من قلب معركةِ الوجع، على الأوراق الجديدة الملوّنة بلون الفِراق الأخير.

(ب)

***متى جادلتَ محبًّا في هواه، صارتِ الحبيبة في جدالكما كالفلسفة؛ تراها عندَ أهلها إيضاحًا لكلّ شيء**

معقّد، فإذا تناولها غيرُ أهلها انقلبت تعقيدًا لكلّ شيء واضح*.

مصطفى صادق الرافعي

أذهبُ بما سلفَ من شأني عن ذاك المُقبِل، وأستدبرُ من أمري أكثرَ ممّا أسْتقبل، يُفزعني أنْ أفقد ما كان فِي الزَّمنِ الغابِرِ، أنّى لي بسعادة كالتي حظيتُ بها، وأشياء لم أكنْ أعرفها فعرِفتُها، أذهل عن كلّ شيء إلّا عن ذاك القابعِ خلفَ أضلعي، وفي حنايا القلب، ذلك الذي يجعلني دومًا أتلفَّت!

إنّ آخرَ الأشياء حدوثًا هو الأوّل في اعْتبارات القلب؛ إذْ تكون حرارته حيّةً تضطرمُ في الوجدان، وترتبكُ على أثرها الأركان..

وبقدْر وجودك الباقي في نفسي سأبدأ رسائلي بك.

كُلّ مرّة أكتبُ فيها تكون بنَضارة الأولى، مازال احْمرار الوجنتين وحرارةُ الأذنيْن وتلعثمُ الكلمات في الشّفتين، مازال ارتباكُ القلب إذا ما همّ القلمُ بالكتابة فصادفتْه ارتعاشةُ اليدين، ما أصعبَ لقاءَ الحرف بالحرف!

كُنت كُلّما يئستُ من قدومك عاودتني أنفاسُ الأمل في لقائك، وكلّما ظننتُ بيقينِ غيابك؛ آمنتُ أنّك موجود.. موجود!

والآن..

إذا أتتك رسائلي فأكرمْها؛ إنّما هي بِضْعَة منّي، سال مدادُها من مدامعي، وصُنِعَت على عينِ قلبي.

(ج)

وإنّ ساعةً من الكتابة لمَن نُحِب لَجَنَّة نُطفئ ببردِ حلاوتها نارًا أُجبرنا أن نحْياها. فسلامٌ على الكلماتِ ومدادِها، وأرواحنا المبعوثة فيها.

وإنْ عجبٌ فعجبٌ هو،

أسْماها القلب مُصادفة؛

والعقلُ يقول: لا شيء يخضعُ للمصادفة، بل هو قدرٌ محسوب.

وأنت.. لا تركنْ لسلطانِ قلبك وحدَه فتشقى، ولا سلطان عقلك وحدَه فتضلّ.

سِرْ على دربِ القدر، فكلّ متوقّع آت، وهيْهات أن تفرّ من قدرِك، هيهات!

خرجتُ من عند الطبيبة، أحملُ أمانة التّكليف على عاتقي، ولا أدري كيف سأخوضُ غمارَ تفاصيل كلّ ما كانَ بشجاعة.. وحدي.

خرجتُ وكدتُ أنسى موعدي معه، ربّما لأنّني لم أتوقّع أبدًا أن يتذكره فضلًا عن أنْ يفي به، فذكّرني الهاتفُ به، عندما رنّ وقرأتُ اسمه على شاشتِه لأوّل مرة، فقفزَ قلبي منتفضًا من مكانه، ولم يعدْ إلى مكانه منذ ذلك الحين حتّى

هذه اللحظة التي أكتبُ فيها الآن كلماتي تلك.
ضعيفةٌ هي الأحرف، أوهنُ مِن أن تُخرِج ذاك المُختبئ خلفَ قُضبان الصّدور.
مهلًا،
فبعضُ الرسالات نخشى أن تَصِل.. ونخاف ألّا تَصِل.

(د)

يا ساكنًا في الجسدِ

مَثَلك كمثل الروح

يا ضائِعًا في الأمدِ

يا سرّي المفضوح

ومفارقًا للأبدِ

يا قلبي المجروح

وصوتي المبحوح

وطيفًا على نفسي

يجيء ولا يروح

كالهمِّ أو كالكَبَد

يا ساكنًا في الجسد!

***

رسالة (١)

***الحبّ الذي يُعمِّر طويلًا لا يُقال، لا يُمكن أن تضعَ يدَك على حقيقته، ولا يُمكن فلسفتُه، ولا حتّى البوح به*.**

أيمن العتّوم

سلامٌ من الله عليك
دعْني أخطّ إليك أحرفًا من روح..
واعْلم.. أنّ تلك هي أولى رسائلي إليك.
أوّل الرّسائل الحقيقية التي أكتبها، وليستْ كسابقاتها من نظمٍ منثور؛ كُنت أكتبُه كنصّ أدبيّ يُعجِب النّاظرين، ويتخلّل أرواحَهم حتى يُعلّق قلوبهم على حافة الانتظار.
يسألونَني رسالةً جديدة تُخاطب الرّوح فيهم، رسائلَ لم تكنْ لك، ولم تكن لأحد..
أمّا الآن، فإنّ رسائلي إليك.

***

رسالة (٢)

بلا تاريخ

حُبّك قدري

***تَعَم سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأَرَّقَني**

والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ

يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً

مِنِّي إليكَ ولو أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ*

البوصيري

لم يُقذَف حُبّك في قلبي بصدفةٍ عشْوائية، وإنّما هو قدرٌ قد كتبه الله علينا.

كُتِبَ على قلبي محبّتك، أنا التي كنتُ قد كفرتُ بالحُبّ، وأيقنت أنَّه ليس لي حظٌّ مقسوم معه، فجئتني أنتَ من حيث لا أحتسب، وسلّمت إليك قلبي طوعًا مُذ وقعتْ عيناي على صورتك، نعم.. أحببتُ الصّورة قبل الأصل.

لم يكن ثمّة إرادةٌ في هذا، وإنّما كُنت مُساقةً إلى قدرِ محبّتك بكامل الرضا.

أحببتُك قبل أن يرتدّ إليّ طرفي، الذي فارقني هو وروحي، واستكانوا عندك.

***

رسالة (٣)

الثامنُ من سبتمبر. عام الجائحة

أوّلُ الحكاية صوت

لم يكنْ واحدٌ منهم يدري أنّ للصّوتِ ذاكرة، أنّ للصّوتِ صورة!

أيمن العتّوم

دعْني أحدّثك عن رهبةِ الاستماع إلى صوتك، عندما هاتفتك ذلك اليوم، كنتُ قد سلّمت بأنّني لن أراك، حتمًا سوف تعتذرُ عن لقائي، بل ربّما تنسَى الوعد والموعد.

صحيحٌ أنّني سمعت صوتَك من قبل، لكنّ صوتك الموجّه لي- أنا- كان شيئًا آخر، أثَارَة من حلم قديم، وكأنني أعرفك من قبل...

كلماتٌ دقيقة مُنتقاة معْدودة، استقرّ بها المقامُ في قلبي إثرَ مرور لطيف من أُذنِ الروح التي استمعت إليك.

في ذلك الحين، امتدّ جسرٌ لطيف غيرُ مرئيّ ما بين اسمك وصوتك، صورةٌ ما

تشكّلت بداخلي، سرعانَ ما اكتملت عندما التقيتك.

وبرغمِ أنّ اللقاء أكملُ وأجمل، إلّا أنّني وددتُ لو طال الاتّصال، وبقيتُ على شاطئ صوتِك أنسجُ من خيالاتي عنك ثوبَ لهفة مصنوعًا على مزاج الهوى، صوتُك كان كافيًا كي يمدّ بساطًا من الطمأنينة تحتَ قلبي المُضطرب المسكين الذي يرتجفُ شوقًا للقائك، وخوفًا من لقائك.

أوّلُ الأمر أن تودّ رؤياهم، ثمّ تودّ لوْ لا تغيب عنهم، ثمّ يكون وجودهم دائمًا فيك ومعك إن صاحبوك، وحتّى إنْ رغمًا غُيِّبت عنهم!

***

رسالة (٤)

الثامنُ من سبتمبر. عام الجائحة

أزمنةُ القلب

***بعضُ اللّحظات العابرة في الحياة ربّما تُشكّل الحياةَ نفسها لصاحبها، بعضُ النّظرات إذا دخلتِ القلبَ لا تستطيع كلّ الأحداث أن تنتزعها من هناك*.**

أيمن العتّوم من رواية (خاوية).

وصلتُ إلى نفق كليوباترا على البحر، في الإسكندرية، حيث تواعدنا على اللّقاء، على وجلٍ أنتظر، وأحملُ في يدي هديّة أخفيها عن أعين الناس، وأخبّئها عنك، وأنتظرُ ساعةَ أهديك إيّاها وقد امتلأتُ خوفًا من أن ترفض هديّتي، وما بين الخوفِ والحياء بقيتُ أتردّد كبندول ساعة لا يُشير إلى وقت، لكنّه لا يتوقّف..

هاتفتُك، وأجبتَني، وظهرتَ سريعًا أمامي، مرتديًا (تيشرت) صيفي أصفر اللّون، قد جمعت شعرَك وعكصتَه مرفوعًا، ترتدي نظارتك، وتتحرّك مُسرعًا نحوي، قائلًا: عرفتُك عندما رأيتك..

تجاوزتْ جُملتك كي لا أنتبهَ إلى كونك عرفْتني مُنذ رأيتني، أنت الذي لم ترَني من قبل.

إنّ المرءَ عندما يلقَى الحبيب تهبُّ عليه بلطفٍ نسائمُ المحبّة، تتساقط عندها قطراتُ الندى بردًا وسلامًا على القلوب لتكونَ في لمحة العين حياءً وهمسةَ القلب، شفاءً وارتعاشة الأنامل من الرجاء.. كُلّها رسالات تصل، تُقبل في رِحابِه إذا أقبَل، ويبقى أثرُها بعده عندما يرحل!

اللّبيبُ قد يقرأ صمتَ مَن لا يعرف، لكنّ المحب يقرأ مفرداتِ الصمت في وجْه الحبيب، وقد تمثّلت له لغةً منطوقة يسمعُها هو، ولا يسمعها ويفهم عنها أحدٌ سواه.

هكذا قرأتُ حياتِك على صفحةِ وجهك، كنتَ تتحدّث فأستمع إليك، وكنتُ غالبَ

الوقت صامتة، أنصتُ إليك- على ما يبدو لك- إلى ما تقوله، لكنّي في حقيقة الأمر كُنت أُنصتُ إلى ما لم تقل.

كنتَ ودودًا، فاستطعتَ تجاوزَ خجلي كلّه معك، وجلست قبالتك أسمعك وأتحدّثُ معك، وكأنّي عرفتك قبلَ هذا اليوم بسنواتٍ مضت، ساعتان من عُمر الزّمن مرّتا أسرعَ ما يكون، وأجملَ ما يكون.

لا يمكن أن تخضعَ أزمنةُ القلب لقانونٍ مجرّد، يُخبرنا أن الساعة ستون دقيقة، وإلّا كيف نفسّر أنْ تمرّ ساعة بسرعةِ الضوء، وتُبقي في أنفسنا ذكرياتٍ تسعُ العمرَ بأكمله.

صاحبتُ السكوت دهرًا طويلًا حتّى عُرِفتُ به، وصارَ لي صاحبًا في وحدتي.

كُنت إذا خاطرتُ بتركه ردّني إليه بمرارةِ كلّ الكلمات التي نُطقت في غيْر أوانها.

فأعودُ إليه وأسكنُ إلى جواره، إذْ أنّني قد أمنتُ جانبه، سكنت الصمت وسكنَ فيّ، فأمنت ونمت.

ولسببٍ ما لا أعرفُه مللتُ نوْمتي، فقمتُ وانحلّت العقدةُ الأولى، ثمّ مرّ بي الغريبُ فانحلّت العقدةُ الثّانية، ولسببٍ آخر أعرفه توضّأت بنور وجهِه فانحلّت العقدة الثالثة.

وانفلتَ عقالُ الصّمت القديم، فانطلقتِ الكلماتُ في لهفة على غير هدى.

يا أيّها الصمتُ الجميل، لا بأس أن تنطق لو كان الغريبُ يُطيق هذياني، أو دعْه وامْسك زمامَ لساني، ونَمْ.. عليك ليلُ هجرٍ طويل!

***

رسالة (٥)

السابع والعشرون من سبتمبر. عام الجائحة

أفكّر فيك

***أيّها السّاكنُ عيني ودمي**

أينَ في الدنيا مكانٌ لست فيهِ*

إبراهيم ناجي

لطالما أحببتُ النّظرَ إلى المدى، يُذكّرني المدَى بك، أراه بعينِ الروح، أراه ولا يُمكنني إدراكُه.. مثلك، يُذكّرني المدى بك، وبالبُعد!

أجلسُ على البحر أفكّر فيك...

قدْ يتبادرُ إلى ذهنك أنّني أُفكّر فيك الآنَ لأنني أمام البحر؛ حيث التقينا أمامَه

أوّل مرة...

لكنْ، فلتعلمْ يا عزيزي أنّني أفكِّر فيك طوال الوقت، لا تُذكّرني بك الأماكن؛ فأنا في كلّ الأماكن أراك، وكيف أتذكّرك إنْ كنت لا أنساك.

ولكن،

يعزّ عليّ حين أُديرُ عيني أفتّش في مكانك لا أراك، مكانُك الذي أخذته في قلبي بدون علمٍ مُسبَق منك، وبدون قصدٍ أو عمدٍ منّي، هذا المكان هو لك ولا تعلم، وددتُ لو علمت أنتَ الذي لا تعلم.. ليتك تعلم!

يمكنُك ببساطة أن ترسمَ ابتسامةً ساذجة على مُحيّاي، لكنّها ساذجة وصادقة، يمكنك أن تجعلَ الطفلة بداخلي تبتسم.

تلك الابتسامةُ عرفت طريقَها إلى قلبي ووجهي في يوم لقائنا الأوّل، عندما ودّعتك راحلة، وركبتُ السيّارة، ابتسمت كما لم أفعلْ من قبْل، ابتسمت بجوارحي وقلبي وروحي.

وددتُ لو استطعتُ الاحتفاظَ بتلك السعادة، فأتمكّن من استعادتِها كما هي في أيّ وقت.

ابتسامةٌ كتلك، ارتسمتْ على وجهي عندما راسلتك أثناءَ رجوعي اليوم إلى المنزل، بعدَ جلستي أمام البحر..

مجرّد رسالة مكتوبةٍ منك، كفيلةٌ بأن تفعل ذلك وزيادة، يمكنها أن تجبر قلبي المكلوم حُزنًا، بابتسامةٍ رسمها وجودُك في حياتي، حتّى وإن كنت لا تعلم.

أنتَ الذي تمنّيتُ أن تعلم!

***

رسالة (٦)

الثامن والعشرون من سبتمبر. عام الجائحة

نفثة مُشتاق

أين المفرّ؟! وعيناك أمامي، وفراقك ورائي، والعمرُ مستحيل بك، وبدونك

غادة السمّان

اشتاقتْ لك الكلماتُ والمعاني، اشتاقتْ لك الرّسائل والأماكن، اشتاقت عيوني إلى ملامحك، واشتاقتْ أُذناي إلى سماعِ صوتك، وثرثرتي إلى سمعِك، وتنْهيدتي إلى صمتك..

اشتاقَ تعبي إلى هدهدتِك، وخجلي إلى جسارتك، وقدومي إلى انتظارك..

لِي حينٌ من الدّهر أنتظر قدومَك، فلماذا جئت.. لِماذا رحلت.. اشتقت لك!

أغرقت في تفاصيلك حتّى تاهتْ منّي تفاصيلي.. كَلّها، هلّا رددت عليّ كَنْه روحي.

البعضُ يُخرِجُون من كوامنِنا ذاك البعيد المنْسي في زاوية الروح، نتلعثم أمامَهم وكأنّنا حديثو عهدٍ بنطقِ الكلام، ونرتبكُ كطفل يضحك حين يبكي، ويدمعُ في موضع الابتسام، يُريحنا وجودُهم وحديثُهم وسكونهم والاهتمام، أغلبُ الظنّ نلقاهم صدفة بدون تفسيرٍ لبدء أو تصوّرٍ لختام، تصافح الروح آمنةً عند اللقاء وما تلبثُ تلوّح بالرّحيل.. والسلام!

***

رسالة (٧)

التاسع والعشرون من سبتمبر. عام الجائحة

في عشقِ الأسماءِ والضّمائر

***وأنزّه اسمَك أن تمرّ حروفُه**

من غيرتي بمسامع الجلّاس

فأقولُ بعض الناس عنْك كناية

خوفَ الوشاة وأنتَ كلّ الناس*

بهاء الدين زهير

عزيزي،

أحمدُ الله إليك، وأقولُ لك إنّي بخير مادُمت بخيرٍ يا سيّدي..

وقَولي إنِ استمعت إليه بقلبك وجدتَ أنّه قولٌ بليغٌ ووجيه؛ مثلك يا عزيزي.

أحِبُّ أن أنطِق الأسماءَ مشْكولة، وأعطي كلّ حرفٍ حقّه ومُستحقّه، في كلّ حرفٍ نفحةٌ من روحِ الكلمة، دافئة إذا ضُمَّت، راقية إذا فُتِحَت، رقيقة إذا كُسِرت!

لقدْ كانت الأسماء دومًا علامةً فارقة عندي، تُرسِل إلى نفسي دلالاتٍ قوية، لكنّها ليست بالدلالاتِ الصّحيحة دائمًا، وأنا على كلّ حالٍ أستقبلها وأسكنُها حيثُ سكنت، فإمّا صدق الدّلالة، وإمّا الصّدفة العابرة.

وفصيحُ اللّسان إذا أحبّ علِم أنّ كلّ الأبجديات لم تعدْ تنفعه، فيصير كلّ حرفٍ ظنّ أنّه يعرفه له معنًى جديد، وله وصلٌ بكلّ حرف غيره عجيبٌ وفريد!

وهاأنذا، أَنْسِب كلّ الأشياء إليك، وألْحِقُ كلّ الكلماتِ بك، فلا يعنيني منها إلّا هاءُ الضمير العائدة عليك.

***

رسالة (٨)

الثلاثون من سبتمبر. عام الجائحة

والله تستاهل يا قلبي

***وحاطَها اليأس بجوّه الذى يحرق الدم، وبدتْ مجروحة المعانى إذ كان يقاتلُ في نفسها الشّعوران العدوان؛ شعور أنها عاشقة وشعور أنها يائسة*.**

مصطفى صادق الرافعي

أشعرُ بوجعٍ شديدٍ في داخلي، عندما تقرأ ما أرسِله لك، ثمّ لا تردّ عليه، ولا تُعِر صاحبتَه بالًا، ولا ترثي لها حالًا، أشعرُ بالخُذلان منك، ولا ذنب لك..

الذّنبُ ذنبي أنا..

أظنّني مثل أمّ كلثوم، والتي أعرف أنّك تُحبّ صوتها، عندما تُغنّي (حيّرت قلبي)، فأجدُني في قولها:

خاصمتك بيني وبين روحي، وصالحتك، وخاصمتك تاني...

أعيشُ أحداثَ قصّتنا وحدي، وأعلمُ أنّك ربّما تتعجّب من أفعالي، ولا أدري هل تفهمُ ما وراءها من اهتمامٍ بك، أمْ أنّك لا تفهم، أو تفهم ولا تهتمّ، ولا يعْنيك أن تفهم أو تهتمّ.

ليسَ الذنبُ ذنبك؛ بل كانت حماقاتي، ودعْني أقول لك بيني وبين نفسي قولَ الستّ:

(هفضل أحبّك من غير ما أقولك)..

أنتَ الذي لا تعلم، ووددتُ أن تعلم، بل أرجو الله أنْ تعلم وتفهم.

***

رسالة (٩)

الأوّل من أكتوبر. عام الجائحة

يا هاجري

أليسَ جنونًا أن أنتظرك وأعرفُ سلفًا أنّك لن تأتي

واسيني الأعرج

***

أيكونُ حظّي منْك أنّك هاجري

ويكون حظّ العالمين لقاك!

***

هكذا كنتُ أنظر لكلّ مَن يُسعده الحظّ بلقائك أو الاجتماع بك، وكَنت أظنّ أنّني عندما ألتقيك سأنالُ حظّي منك، ولكنّني لم أكنْ أعرف أنّ مَن ذاق طعمَ اللقاء عرفَ حلاوته، وبقدْر تلك الحلاوة تكون مرارةُ الفراق، ولا تصيرُ نظرتي لمَن يجتمع بكِ نظرةَ المغتبط فحسب؛ بل نظرة الملتاع أيضًا، الذي تصرخُ جنباته: ليتني كُنت أنا.. ليتني الآن معك.

أفكّر في هؤلاء الذي يستعجلون مرورَ الدّهر كيف يدفعون الأيام مازحين أو جادّين، وكأنّها لن تقصفَ من أعمارهم بمرورها! وأتعجّب من كلّ مُتعجّل لمرور الأيّام إلّا مُنتظرًا لغائب.

وبقدْر ما كنت أنتظرُ قدومك لحضور معرض الكتاب في الإسكندرية، كانت تعتريني من حينٍ لآخر رجفةُ الخوف، خوف أن تنشغل فلا تأتي، فأنا يا عزيزي- كما تعلم، دون أن تعلم- أخبرتك بيني وبين نفسي أنّي أعيش تفاصيلَ حكايتنا وحدي.

لا تظنّ بي حُبّ الوحدة، فإنّي مُنذ عرفتك صارتْ وحدتي مليئة بك، بأخبارك.. بكلماتك.. بانتظارك!

اليوم، عندما سألتك عنْ موعد قدومك، أجبتني بأنّك لا تعلم.

آاه يا عزيزي، لو تعلم حجمَ الأشياء التي لا تعلمها، عرفت أنّ موعد مَجيئك أهونها، فقد تأتيني وأنا لا أعني لك شيئًا، أو تغيب عنّي وأنا أعني لك كلّ شيء.

وأسوأ الظّنون ألّا تأتي، وأنا لا قيمةَ لي عندك، بينما الرجاء- كلّ الرجاء- أنْ تأتيني وقدْ صار لي في قلبك مكان، أمّا أنت! فأنت القلب وما فيه.

***

رسالة (١٠)

الثاني من أكتوبر. عام الجائحة

على بساط التخيّل

***يا حُسنَ طيفٍ من خيالك زارني**

مِن فرحتي بلقاه ما حققته

فمضَى وفي قلبي عليه حسرة

لو كان يمكنني الرّقاد لحقته*

تقي الدين السروجي

أشدّ من ألم الفراق أنْ تتخيّل لقاءً بعيدًا لا يجيء!

هكذا أنا معك، مُذ فارقتني بعدَ لقائنا الأوّل، أعيشُ قصّتي معك على بساط التخيّل، أُمنّي نفسي كلّ حينٍ بمجيئك، رغمَ اضطرابي الدائم خوفًا من عدم

مجيئك.

سافرتُ القاهرة على أمل لُقياك فلم نلتقِ، والآن أنتظرُ مجيئك إلى الإسكندرية وأخشى ألّا تفعل.

مؤلمٌ هو الانتظار، مؤلمٌ أنْ تنتظر مَن لا يأتي، ومَن لا يعلم أنّنا ننتظره!

تقول *مي زيادة* في إحدى رسائلها:

سأتصوّرك عليلًا لأشفيك، مُصابًا لأعزّيك، مطرودًا مرذولًا لأكون لك وطنًا وأهلَ وطن، سجينًا لأشهدك بأيّ تهوّر يجازف الإخلاص، ثمّ أبصرُك متفوّقًا فريدًا لأفاخرَ بك، وأركنَ اليك. سأتخيّل ألفَ ألفِ مرّة كيف أنتَ تطرب وكيف تشتاق. سأتخيّل ألفَ ألفِ مرّة إلى أيّ درجة تستطيع أنْ تقسو، وإلى أيّ درجة تستطيع أن ترفقَ لأعرف لأيّ درجة تستطيع أن تحبّ. أتعلم أنتَ الذي لا تعلم؟ أتعلمُ أنتَ الذي لا أريد أن تعلم؟

دعْني أُخبركَ عن حالي مع (مي زيادة)؛ عنْ أنّ الناس يُطلقون عليّ اسمَها في وِرَش الكتابة، وكلّ مكانٍ كُنت أُلقي فيه نصوصًا من تأليفي، ولقدْ أحببت أن يُلمَح أثرُها في قلمي، فهي قلمٌ نسائي رقيق مُعَبِّر، لكنّي كُنتُ أخشى أن يُشبه حالي حالها، أو يكون مآلي مثلها.

أمّا عنْ سببِ اختياري هذا النصّ تحديدًا لها؛ فلأنّه يصف حالي معك، حالي وأنا أتصوّرك على البُعد، وأتصوّر كلّ شيءٍ معك، غير أنّي أختلف عنْها في أنّي (أريدك أن تعلم).

***

رسالة (١١)

الثالث من أكتوبر. عام الجائحة

على أنغامِ فيروز

عم شوفك بالسّاعة.. بتكّات الساعة، من المدى جاي، حبيبي

أنتَ وأنا وفيروز، أحِبُّ أغانيها، وأعلمُ أنّك تُشاركني هذا الحُبّ لها، وليس هذا الأمرُ هو المشتركَ الوحيد بيننا، فمساحاتُ التلاقي أكثرُ من أن تُحصَى، وأيضًا مساحاتُ الاختلاف ليستْ بالقليلة، لكنّني على كلّ حال لا أحِبّك لكلّ مُتشابهٍ بيننا، فحُبّي لاختلافك عنّي هو وحُبُّ التشابه عندي سواء.

عندما نتشابه نمرُّ بمساحاتِ التّلاقي بيُسرٍ بدون أدنى عناء، وإذا ما اختلفنا تأكّدَت محبّتك في قلبي؛ فبالضدِّ تتمايز الأشياء، فأنا لم أحبّك لتشابهٍ ولم أحِبّك للاختلاف؛ ليس للحُبِّ سببٌ يُفسِّره إلّا كما يُفسَّرُ الماء بالماء.

***

رسالة (١٢)

الخامس من أكتوبر. عام الجائحة

أهواك بلا أمل

***أهواك بلا أمل وعيونك تبسم لي**

وورودك تغريني بشهيات القبل

أهواك ولي قلبٌ بغرامك يلتهب

تدنيه فيقترب تقصيه فيغترب

في الظّلمة يكتئب ويهدهده التعب

فيذوب وينسكبُ كالدّمع في المقل

في السّهرة أنتظر ويطول بي السهر

فيسائلني القمر يا حلوة ما الخبر

فأجيبه والقلب قد تيّمه الحب

يا بدر أنا السبب أحببت بلا أمل*

زكي ناصيف

أستحقُّ مكافأةً منك يا عزيزي؛ لأنّني استطعت أن أمَرِّرَ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة دون أن أرسِل لك رسالةً جديدة، رُغم أنّني قضيت ليلتي بالأمس في الشّرفة أنظرُ إلى البدرِ الذي في السماء، وأستمع إلى (فيروز) خاصّتنا وهي تُغنّي في قلبي، وصورتك شاخصةٌ أمام بصري *أهواك بلا أمل*.

إنجازٌ كبير جدًّا لو تعلم، بقائي تلك الساعات دون أن أختلق ألفَ عُذرٍ وأتحجّج بألف حجّة كي أُرسِل لك وأتحدّث معك، رغم أنّ سرّي مفضوحٌ معكَ على ما يبدو، أنا التي لا يُذاع لها سرٌّ.

بقدْر ما أحبّ رسائلنا المُقتضبة القصيرة؛ إلّا أنّني أدْخل مرارًا وتكرارًا على المحادثة وأرقبُ جُملتك الأخيرة:

إن شاء الله..

وأضعُ قبْلها في خيالي ألفَ أمنية، مثل:

اللّهمّ ائتني به إنْ كان الخير فيه

اللهمّ اجمعني به إنْ كان ذلك يُرضيك

اللهمّ اجعل لي نصيبًا معه في طاعتك

كلّ تلك الدعوات وأكثر أسِرّها في نفسي، كي يعقبها قولك: *إنْ شاء الله*.

****

رسالة (١٣)

السادس من أكتوبر. عام الجائحة

أُهديك صباحاتي

صباحُ الخير يا عزيزي،

لكَ منّي تحيّة صباحيّة، أرْسلُها لك هنا كي أكبحَ جماحَ رغبتي في أن ألقيها عليكَ في المُحادثة المفتوحة بيننا، عزّةُ نفسي تمنعني أن أفعل، وقبْلها خشيةُ الله حائلٌ منيع، ولكنْ ماذا عن كلّ مرّة لم أستطع منع نفسي فابتدأتك بالسلام، كم نقصَ مقداري عندك حينها؟

أشفقُ على نفسي، وأكرهُ أن أفعل ذلك؛ إذْ أنّ الشفقة هنا ليست من باب الإحساسِ بها، وإنّما من بابِ ضعفها الذي تؤتى منْه مرارًا وتكرارًا، أبثُّ إليكَ خطراتِ نفسي جميعها؛ لأنّني أعلم أنّك لن تقرأها، ولا أخالك ستفعل؛ إلّا إنْ قدّر الله اجتماعنا، ذلك الاجتماع الذي أرجوه، زوجًا وزوجة، أستاذًا وتلميذة، محبًّا وعاشقة، وسيّدًا جسورًا رؤوفًا، وجارية لا تستنكف عن طاعته.

أحبُّ فجأة الفرحةَ التي تعتريني عندما ألمحُ وجودَك على مواقع التواصل، وأكرَهُ ذاك الحاجز الإلكتروني الذي يحولُ بيني وبين رؤيتك الحقيقية، وأبغضُ أحيانًا درعَ حيائي من تحيّتك كلّما لُحْتَ لناظري، وليس ذلك بسببِ الحياء؛ إذْ إنَّ الحياء ممدوحٌ في ذاته، ولكنّه توجّع من وطأة المنع؛ منعي عنكَ.

حقًّا، ليس للمتحابّين إلّا النكاح، ولكنْ ماذا إن لم تكن تُحبّني ولا ترغب في ذلك القيد الجميل مثلي؟

ولماذا أحبّك أنا إنْ علمت عنك هذا؟!

هل يا تُرى يسأل المرءُ نفسَه إذا ما أحبّ؛ لماذا أحبّ؟ أو ماذا إذا لم يُبادلني الحبيب الحُبّ بالحُبّ؟!

بالطّبع لا يسأل.

فالحُبّ عاصفة هوجاء، وسلطان جائر لا يُشفق على شعبه، وإنّما يحكمهم بسطوتِه، وهُم يُساقون إليه في انقياد مُحِبّ طوعًا تارة، وكرهًا تارة أخرى.

آه.. نسيتُ أنْ أُخبرك بأنّني: (أهدي كلّ صباحاتي إليك؛ فهل ستقبلُها؟!)

***

رسالة (١٤)

السابع من أكتوبر. عام الجائحة

ادّعاء كاذب

عزيزي،

في اللّيلة التي كنت أودّ لو كنتُ أنتظرك فيها، وأتعجّل ساعاتها لتمرّ وتأتي لي بغدٍ أنتَ فيه، ويلوح في أفقي السّؤال: *أغدًا ألقاك*؛ وجدتني بدلًا من هذا لا أجدُ أملًا في لقائك، وأستجلبُ- قسرًا- كلمات (زياد الرحباني):

مش فارقه معاي

أقنِعُ نفسي بأنّ الأمر حقًّا ليس بفارقٍ معي..

ادّعاءٌ كاذب ومحاولةٌ فاشلة، وحال يائس..

لماذا جعلتَ حالي معكَ كمثل قول (فيروز):

صباح ومسا.. شي ما بينتسا.. تركت الحب.. وأخدت الأسى

أعتذرُ منك يا عزيزي.. لا علم لك بكلّ هذا، هذا شأنيِ الذي اخترت أن أعيشَه وحدي، وأنتَ لا تعلم عنْ هذه الحال شيئًا، لكنّ الذي أوقن أنّك تعلمُه؛ أنّك خذلتني كثيرًا ولم تسأل، ووعَدتني كثيرًا ولم تفعل، وعدت بالمَجيء ولم تفعل، وبالحديثِ ولم تفعل، بالاهتمام ولم تفعل..

أنتَ الذي وددتُ أن تفعل، ليتك تُشفق على حالي وتفعل!

مِن المُستحيل أن أُخبرك أنّني (أحبّك)، ومِن المستحيل أيضًا أن أُبقي هذا الأمرَ في قلبي فلا يصلك منه شيء.

أنا أريد أنْ أحدّثك عن شيء لا أملكُ الشجاعة أن أواجهك به، أو أن أسْمِعك إيّاه بصوتي؛ فيرتفع صوتُ نبضات قلبي وتتهدّج أنفاسي وتتلعثم الكلماتُ على شفتي ويرتبكُ المنطق على لساني، وأتعثّر في حيائي منك، وتتقافزُ الانْفعالات من حولي تلومني أنِ اتّبعت دربًا لا عهد لي بالسير فيه، وأسمعُ صدى ضحكات ساخرة خلفَ قضبان صدري وأصابع تُشير إليّ شامتةً أنّي فعلت ما كنتُ أكرّر كثيرًا أنّي أرفضُه في قرارة نفسي، لذا قرّرت أن أودعَ كلماتي في رسالة إليك، لكنّ العجيب أنّي أدور حول ما أريدُ قوله دوران الحائِر في عقلي وقلبي، وأحايل نفسي علّها تتراجع في اللّحظة الأخيرة، أخوّفها بخسارتك؛ خسارة ما يستحيل تقبُّل خسارته، أشفق على نفسي أن تُبين عمّا فيها، وأشفق أكثرَ عليها ألّا تفعل، لكنّي لا أدري أيّ الحاليْن أقربُ للسّلامة؛ أنْ أضمِر في نفسي ما أريدُ وأخفيه، وكيف أخفي ما اللهُ حتمًا سوف يُبديه؟!

ربّما البقاءُ على ناصية الصّبر أسلمُ من هذا وذاك، فلا أتعجّل البوح، وفي ذاتِ الوقت أصبّر القلب أنّ آلام الصمت لن تطول.

عَساك تأتي، وتُبادر، فأفوزُ بك وتفوزُ بي؛ لأنّي أعلم يقينًا أنّي أحق الناس بك، وأنت أحقّ الناس بي.

***

رسالة (١٥)

الثامن من أكتوبر. عام الجائحة

أذنٌ مُرهفة

عزيزي البعيد،

مِن عتمةِ الليل صُبحٌ شَقّ، وعصفور هامَ وشقشق، في كلّ شيء آية حق، القلبُ لها دقّ ورقّ!

أحبّ لحظاتِ الدّهشة الأولى عندما يولَد اليومُ الجديد، لأسبابٍ عديدة لا عدّ لها ولا حصر.

عندما يتبيّن الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود، وينبلج الفجر.

عندما تزولُ جميع ظنوني أنّ الليل ثقيل وطويل لا ينزاح عن الصدر.

عندما أسمعُ الزّقزقة الأولى لذاك العصفور الصّغير مسبّحًا ربّه، مُناديًا قومَه في أغنية محبة وسعي وبِشْر.

أصواتُهم تغْدو في نفسي وتروح، تهدهد القلبَ والرّوح، تُعلِن في الخلق تمامَ التوكّل وصدق اليقين، وتُسرّ في أذني أنْ كفكفي الدمع الحزين.

أمس، انتهينا إلى نقطةٍ في آخر السطر، واليوم.. يومٌ جديد هو نقطة؛ ومن أوّل العمر.

يعْلو صوتُ عصفورٍ ما بزقزقته أمامَ نافذتي، يبدو لي وكأنّه مُحارب يُعافِر معَ الحياة، ويُجادل بحجّته القويّة النقيّة عن نفسه مواجهًا كلّ سوءٍ فيها، مُثابِر لا يكلّ ولا يمَلّ، وإن بدا أنّ زقزقته لا يفقهها أحد.

رغمَ هذا هاأنذا أسمعها وأضعُ لها تفاسيرَ منطقية وغير منطقية، المهمّ أني سمعته، وأنصتُّ إليه بروحي، ولقد كان مُلهِمًا لي؛ هو المُنشغل بسعيه وزقزقته، وأنا القابعةُ خلف نافذتي أسمعُه وأقرّر معه أن أحْذو حَذوَه، وأواصلُ معه سعيي وزقزقتي أنا الأخرى بلا كلل ولا ملل.

***

عزيزي،

تملك أذنًا مُرهفة..

هذا ما تبادرَ إلى ذهني بعدَ أن أرسلت إليك في صباح اليوم تسجيلًا بصوتي، فأجبتني قائلًا:

حلو صوت العصافير

زادَ انتباهي إلى صوت العصافير حولي بعد تعليقك، وجذبت طرفَ الحديث فشغلتني عن حزني على عدم مَجيئك، كان نهارًا غائمًا حتّى كتبت لي فيه، فأشرقت شمسُه، وغنّت عصافيره، وحملني النهار بخفّة حديثك والكلمات، كُنت أخفّ من هذا العصفور الذي استمعنا له سويًّا، جعلتني بخفّة ظلّك ألمسُ السماء، فارقت أرض خوفي بدون أدنى تردّد، وهكذا بقيت معك في حديثٍ لا هو بالطويل المُمِلّ، ولا هو بالقصير المُخِلّ..

وفجأة، مضيتَ عنّي وتركتَ شوقًا فائرًا، وحديثًا مفتوحًا بدون ختام، بلا وعدٍ بالتّمام، ولا حتّى سلام، هل هجر الحبيب؟ بل غفا الحبيب ونام...

اصطدمتُ بأرض واقعي الغائم بقوة، كُنت أشبه بالنائم الذي يحلُم حلمًا جميلًا ثمّ أيقظه أحدهم بصفعة!

لم تتركْ لي سحابات حيرتي القديمة، ولم تُبقِ شمس وجودك الدافئة..

لوْلا الكلماتُ التي تبادلناها سويًّا لشككت في نفسي، واتّهمت ذاكرتي وعقلي، فإساءة الظنّ بنفسي أقرب إليّ من إساءة الظنّ بفجأة قدومك.. وفجأة رحيلك.

***

رسالة (١٦)

التّاسع من أكتوبر. عام الجائحة

اللّقاء المنتظر

***الحبّ كده وصال ودلال ورضا وخصام**

آهو من ده وده الحب كده مش عايز كلام

حبيبي لمّا يوعدني تبات الدنيا ضحكالي

ولمّا وصله يسعدني ما افكر في اللي يجرالي

ينسّيني الوجود كله ولا يخطر على بالي

ولمّا طبعه يتغير وقلبي يبقى متحير

مع الافكار أبات في نار وفي حيرة تبكيني

وبعد الليل يجينا النور وبعد الغيم ربيع وزهور

واهو من ده وده الحب كده مش عايزه كلام*

بيرم التونسي

العاشرة صباحًا، في محطّة ترام الرمل.. الإسكندرية

ظننت أنّك لن تأتي (كالعادة)، كعادتك في التأجيل، والإلغاء، والغفلة، والنسيان، وكعادتي أنا في إساءة الظنّ بحظّي، لكنّك خالفت عاداتك كلّها وأتيت وخيّبت ظنّي السيّئ.

جئتني في الموعد، حاملًا معك حظّي السعيد، هذا الذي ظننت أنّه ليس موجودًا في الحياة الدُنيا، أريتني من حظّي وجهًا لم أره من قبل، وجهًا جديرًا بالحبّ، بقدر ما أحببته؛ بقدر ما خشيت أن يُعرِض عنّي ويتولّى مُخلِّفًا وجه الحُزن الذي اعتدت رؤيته، حتّى ظننت أنّي لن أرى غيره.

مشيت معك، بجوارك، وجلسنا في أحد فروع المطعم الذي جلسنا فيه عندما التقينا سابقًا، كنتَ جائعًا بحاجة للطعام، وكُنتُ عطشى بحاجة لرِيّ حديثك، أرتشف الشاي الذي لم أحبّ طعمه، وكفاني منه ومنك نصيبي من صُحبتك، أظنني لو احتسيت حينها مرًّا علقمًا لما اهتممت إلّا لأمرك، فرفقتك تستحقّ في مُقابلها أي شيء.. وكلّ شيء.

أرقبك.. ولا تشعر، وتنشغل عنّي؛ لكنّي أشعر..

أنتَ إنسان غريب كما تصوَّرتك، جميلٌ كما رأيتك، قريب كما تمنّيتك، وحيدٌ كما تخيّلتك، بقدر إعجابي بك خفت منك، وبقدر رغبتي في وصلك بتّ أُفكّر في هجرك.

جولة لطيفة من المطعم لمتحف (كفافيس) الشاعر اليوناني السكندري، ثمّ انصرفنا إلى مقهى يُطل على البحر.

لا أدري لماذا لم أسألك تذكرتيّ دخول المتحف؛ كي أحتفظ بهما، فإن كان مصيرهما معك الضياع، فمعي سيكون قدرهما البقاء بقدر بقاء محبّتك.

بعضُ الأشياء تُذَكِّر بأصحابها، جميلة لشرف الانتماء لهم ومؤلمة إذ بقيت ورحلوا هُم، لا بقي الصّحب، ولا تحررت الأشياء من قيدِهم.

زاهدٌ أنت في الدنيا، حديثك لطيف، شديد الذكاء، ممُعِنٌ في العُزلة مستأنسٌ بها، بك دهاء، سهلٌ ممتنعٌ؛ مكتوبٌ على جبهتك: ممنوع الاقتراب؛ إلّا إذا ارتضيت بجوار نصيبك من السعادة معي؛ حظّك من الشقاء!

ولقد رضيت!!

حدّثتني وأسرَرَت إليّ بنسمة باردة في القيظ، نفحات الحبيب هدايا، والهدية مقبولة محبوبة لا تُردّ!

ها أنذا؛ أكتب تلك الكلمات حارة بحرارة اللقاء، حيث تركتك مُرغمة كي تستريح قليلًا في الفندق، ثمّ ذهبت أنا كي أجلس في مقهى (البُن البرازيلي) أمام كليّة الطب.

جلست أبثّ شكواي إلى الأوراق بقلمِ الحيرة، أكاد أغرق في خِضَم التّساؤلات:

أتُراه أحبّ رفقتي؟ هل أحبّ حديثي؟ أم تُراه ملّ منّي؟

أتُراه يرغب في معاودة لقائي؟ أم أنّه يؤثر الابتعاد عنّي؟

أريد أن أخبِرك أنني.. وأنّي، وأنّي، أتُراك مثلي؟!

ليتك تكون؛ لا خيّب الله فيك ظنّي!

***

رسالة (١٧)

ذات اليوم...

لقاء وفراق ثمّ لقاء

***فإذا وَصَلْت، فكلّ شيء باسمُ**

وإذا هَـجَرْت، فكلّ شيء باكٍ*

علي الجارم

بعدَ أن تركتك لترتاح قليلًا من تعب السفر؛ عُدت إليك، قلت لي إنّك بحاجة إلى ساعتين فقط كي ترتاح، فأشفقت عليك وتركتك ثلاث ساعاتٍ كاملات، ولم تُشفق أنت عليّ فطال انتظاري، وبقيت الساعة الرابعة أحاول الاتّصال بك وأنت نائمٌ لا تردّ، بقيت كثيرًا أنتظر، هكذا أنا مُنذ زمنٍ بعيد، أحترِف الانتظار، وكلّما التقينا وددت لو دام وجودك فلا تُفارق عيناي عينيك، أودّ أنْ يبقى وصلك سرمديًّا بلا انتهاء، شوقًا وخشية، شوقًا إلى دفء وجودك، وخشية أن تغيب إذا ما غبت عنّي؛ فلا تعود مرّة أخرى إليّ.

صعدت إلى الفندق حيث ترقد في نومٍ هانئ لا يعبأ بأرقي وقلقي.

أعطيتُهم اسمك في مكتب الاستقبال، وسألتهم عنك، وبقيت أنتظرك في المكان المُخصّص لاستقبال الضيوف، لم يمرّ وقت طويل حتّى خرجت أمامي، قد بدّلت قميص الصباح الرمادي بآخرٍ أبيض اللون، كلاهما رائع، لأنّك ارتديتهما، فأضفت إلى قائمة الألوان التي أحببتها لونين آخرين جاءَا بعدَ الأصفر الذي رأيتك به في أوّل لقاء.

اعتذرت لي بلُطفٍ، واعتذرت لك بخجلٍ، وخرجنا سويًّا، ثمّ نزلنا في المصعد، كُنتَ تتحرّك بسرعة مُضطربة وكأنّك تهرب من شيء ما، وكُنتُ أُراقبك وكأنني أتمسّك بشيءٍ ما، كُنتَ تخاف أن تعتاد وجودي، وكُنتُ أخاف أن تفجأني بالرحيل فيفجعني غيابك.

سألتني عن الطعام، ماذا نأكل؟

لم أدرِ ماذا أقول، ولم تنتظرني لأفكّر، فاقترحت أنت أن نذهب إلى مطعم (العربي) الواقع خلف جامع (المُرسي أبو العبّاس).

سألتني: هل نركب، أم نسير؟

بالطّبع اخترت السير معك، فأنا لا أريد الوصول سريعًا إلى وجهتنا التي لا تعنيني، بل أريد جوارك فحسب، أن نسير ولا نتوقّف، أن نتحدّث فلا نصمت، أن نجلس فلا نقوم، وأن نبقى فلا نرحل.

سِرْنا بخطواتٍ سريعة مُتجاورة، تكاد تسبقني بروحِ الهارب المُفارق، وأنا ألحق بكَ لحاقَ المتشبّث الخائف، ثمّ وصلنا؛ وليتنا ما فعلنا ليطول الطريق.

سألتني: هل تعبتِ؟ أجبتك: أبدًا، أحِبّ المشي كثيرًا.

وفي نفسي همستُ بباقي الجملة قائلة: أحِبّ المشي معك!

وصلنا، فدخلنا، وجلسنا، لم يكن يعنيني الأكل أبدًا، لم يكن يعنيني إلّا أنت، أنّك أمامي، أسترق النظر إليك، تتلعثم الكلمات في فمي، فأبتلعها خجلًا، وأكمل حديثي الصامت الذي أودعته نظر القلب إليك.. وأنت لا تعلم!

آاهٍ يا من لا تعلم، ليتك تعلم!!

أثناء تناول الطعام سألتك عن صديقٍ لك، وكُنت قد عرفته بمرضه الشديد، وكُنت أعرف أيضًا أنّ غالب الظنّ هو جهلك بهذا الأمر، رأيت تغيّر وجهك حزنًا على صاحبك، وانتقل حُزنك وقلقك إليّ، وددت لو حملت عنك ما أهمّك بصدرٍ رَحب وقلبٍ مُحِبّ، صدّقني إنّ مشاعري تجاهك غريبة بالنسبة لي، غريبة وجميلة، لا زيف فيها ولا ادّعاء، وكأنني وُلِدت يوم وُلدت أحمل حُبّك في أضلعي، ولا تسكن نفسي المُضطربة من زمنٍ إلّا وأنت معي.

أنْهينا الطعام وقمنا وأنت ذاهل عنّي، قد تغيّر حالك كثيرًا؛ قلقًا على صاحبك، وبالرغم من سعادتي أنّي شاركتك قلقك وأحزانك وطعامك، إلّا أنّي خشيت اضطرابك وانشغال بالك، فأنا أعلم أنّك شخصٌ مزاجيّ جدًّا، وأنّك صعب المِراس.

سِرْنا على كورنيش البحر عائِدين إلى حيث يوجد الفندق الذي بقيت فيه، كُنت أطمع في جلسة على رصيف البحر، وحديثٍ طويل أحكي لك فيه كلّ شيء عنّي، أتحدّث فتسمعني، وتتحدّث فأنصت لك بجوارحي جميعها.

لكنّك فجأة دققت ناقوس الفِراق، أبديت شكواك من ألمٍ في معدتك، فاستنفرت كلّ شفقة بداخلي نحوك، واستدعيت جميع مَخاوفي عليك، وصِرت في حيرة لا أملك لك من أمرك شيئًا، ترفض جميع اقتراحاتي بتناول الدواء المناسب، وأنا لا أملك سوى الإذعان لرغبتك في تركي والصعود كي ترتاح من هذا الألم الذي فاجأك ليُنغّص عليك عافيتك، ويُفسد علي لقائي بك.

ثمّ ذهبنا معًا لشراء الحليب الرائب عساه يُخفّف شيئًا من انزعاجك، واشتريت كلّ ما تحتاج لتنفرد بوحدتك وتتركني وحيدة، وفي كلّ مرة كُنّا نمرّ على دكانٍ ولا نجد فيه مُرادك؛ كُنت أخفي فرحي بأن طال بقاؤنا سويًّا بضع دقائق أخرى، كانت الدُنيا كلّها هي أنت وجوارك، وشكواك وصمتك، وحيرتك وهروبك، وقارورة الماء الخاصة بك التي فازت بصُحبتك.

كُنت كلّ شيء، ولم أكن شيئًا، ولم يكن يعنيني هذا، فأنا اكتفيت بك عن كلّ شيءٍ سواك.

أحببتك؛ نعم، كُنت تائهة حتّى وجدتك، وحيدة حتّى صاحبتك، حزينة حتّى ابتسمت لك، يائسة حتّى رأيتك؛ فعلّقت كلّ آمالي عليك.

تركتني، وخذلتني؛ فهل خذلتك؟!

***

رسالة (١٨)

ليلة التاسع ونهار العاشر من شهر أكتوبر. عام الجائحة

لطمةٌ على وجه الرُوح

كـــثير يا قلبي الذلّ عليك دا ذنبك أنت وليه ترضاه

أحمد عبد المجيد

رافقتك حتّى الفندق الذي تمكث فيه، ثمّ رحلت أنا كي أعود إلى منزلي البعيد عنك، في هذا اليوم الذي كان ينبغي أن يكون أسعد أيّام حياتي، لكنّه تحوّل ليكون حزينًا؛ حُزنًا فريدًا، أهرب من وصفه بالحزن وأُكذِّب ظنوني بأن هناك خطبًا ما، يتجاوز تعبك الذي شكوت منه، ولا أستوعب أن هذا الذي استودعته جميع ما أحمل من مشاعر قد أغلق بابه في وجهي بهذه السّرعة، بالكاد فتحه لي، كيف يُغلقه؟

كيف يفعل دون أيّ فرصة، وماذا عن حقّي في المحاولة الذي حرمتني منه ولطمتني على وجهِ الروح لطمةً مازال أثرها ووجعها باقيًا ما بقيت الذكرى في داخلي.

عُدت إلى المنزل، وكتبت لك أطمئنّ عليك، ظللت أكتب لك كلّ حين منذ وصلت، فتارة أكتب:

أريد الاطمئنان على حالك؛ كيف أنت الآن؟

وتارة: *هل أنت الآن أفضل حالًا من ذي قبل؟ أم مازلت مريضًا؟* *حبذا لو أرسلت تُطمئنني عليك!*

كان بإمكاني الاتّصال غير أنّي آثرت الاكتفاء بالكتابة كي لا تنزعج.

لقدِ استبدّ بي القلق؛ ليتك تردّ علي كي أتمكن من الراحة.. وربما النوم ولو قليلًا!

فقد بتّ ليلتي أتقلّب على فراشٍ من قلقٍ وخوف، أرقب شاشة الهاتف المُطفأة بدون أمل في أن تضيء برسالةٍ منك.

وبعدَ ليلة طويلة من السُهد الذي جثم على جفوني، ونارٍ تضطرم في أحشائي وتُضنيني، أتاني ردّ مُقتضب منك؛ ينضح بالجفاء: *أنا بخير الحمد لله*.

فحمدتُ الله كثيرًا في السرّ والعلن، وقفزت من فراشي بنشاطٍ تام؛ وكأنني نمتُ ساعاتٍ متواصلة، وأنكرت السهر والأرق والتعب، وطمعت في المزيد من الاطمئنان فسألتك إن كنت قد أكلت أو شربت أي شيء، فكان الرد سكوتًا موجعًا منك، واتّصلت كي ألتقي بك اليوم أيضًا، وقد اتّخذت كتبًا لي عندك حجة أمتطيها فأقفز بها على حاجز الخجل.

رُغم أنّي أدّعي الاتّصاف بالذكاء، إلّا أن أنسجة الذكاء تتعطّل أمامك ويُصيبها العطب، ووحدها أنسجة القلب التي تعمل بنشاط، وتتجدّد كلّ لحظة تمرّ عليّ مُذ عرفتك؛ وأحببتك.

كنت غبيّة للدرجة التي كنت أتعمّد بها تجاهل كلّ إشارة تُبديها أنت بقسوة موجعة، ولا أدري هل أوجعتني أنت؛ أمّ أوجعت أنا نفسي بتجاهل تلك الإشارات الجليّة!

باءت كلّ محاولاتي للقائك بالفشل، وبات واضحًا أنّك تتهرّب من اللقاء، وبات واضحًا أيضًا أنني مُصرّة على التجاهل.

وبوحيٍ من قلبي المُعلّق بك قمت فارتديت ملابسي المُعطّرة بالخُذلان، ثمّ خرجت متوجّهة صوب معرض الكتاب، وكأنني كنت على موعدٍ معك ويقين بأنّني سأجدك هناك، وما إن خطوت إلى أرض المعرض، أطلقت نظري الحزين في وجوه السائرين؛ حتّى وجدتك!

انقبضَ قلبي ولم أعرف لانقباضه سببًا، وانهارت قواي، ولم أدرِ ماذا أفعل، فلا موعد بيننا، وأنا مشتاقة وبي حنين، لكنّي مترددة، مُقبلة مُدبرة، حزينة حائرة.

هِمت على وجهي وأنا أنظر إليك من بعيد، وابتعدت هائمة على وجهي، أحبس دموع العين كي لا يراها أحد، كي لا تراني!

وفجأة.. وجدتك أمامي، ارتبكت حياءً منك، وارتبكت خجلًا منّي، لم تستطع الهروب منّي، وتسمّرت قدميّ في مكانهما، وسألتني: *كيف عرفتِ أنني هنا؟!*

أجبتك بالصمت، وصرخ قلبي من خلف قضبان صدري: *لم يكن من الصّعب عليّ توقّع هذا يا عزيزي، المُحبّ يُبصِر بقلبه، وتهديه روحه إلى حيث الحبيب

دون أن يدري، المُحبّ يعلم ويرى ويتجاهل ويتغافل، وتمنعه عزّة النفس، هكذا ضجّ وارتجّ الحديث في صدري، وأنت لا تسمع؛ ولا تدري!

ارتعشت الكلماتُ على لساني، وصرت أنا الارتباك والارتباك أنا، أحرف مُبعثرة، نبْرة مُتغَيِّرَة، تحسبني خرساء ما تكلّمت قبل يومي هذا، وعندما نطقت ارتبكت وتلعثمت، لا لست بخرقاء؛ بل ممتلئة بالرجاء ويمنعني عن النطق الحياء، ولكن رسالات الخشية والأمل برغم الصمت تَصِل!

أحوجتني إلى أن أطلب منك كتبي، فاعتذرت عن سهوك، وعذرتك بدون عذر، فقد حكم هواك على قلبي بالصبر؛ وأنت.. أمَا للهوى عليك حكم ولا أمر؟!

إنّ أشدّ الأشياء وطأة على الروح تلك التي تلفظها الروح صمتًا فتشي بها ملامح الوجه والقلب.

ألححتُ عليك أن تجلس معي ونشرب فنجانين من القهوة السادة المُرّة، ولكنّك رفضت واعتذرت، وكلّما زاد إلحاحي زاد تمنّعك، وانصرفت عنّي كي تجلب لي الكتب؛ فكان لزامًا عليّ بعد أخذ الكُتب أن أنصرف أيضًا عنك، فقد بارت سلعتي وانتهت حُجّتي، وذهبت أحمل جعبة مهترأة من وعودٍ واهية بعودتك بعد أسبوعين، وفنجانًا من القهوة حيث التقينا أوّل مرة.

كذبة تناولتها مِن على شفتيك كهدية وداع مُخزية؛ ألقيتها في وجههي؛ فانكبت على التراب ألتقطها وأكرمها بلثمة من شفة ألقت صاحبتها عن نفسها ثوب الكرامة، وبقيت ترتجف إثر الصدمة، واللطمة، كانت كذبة قبضت عليها بكفّي، صدّقتها وهي كذوبة لأنّها كانت آخر عهدي بك.

***

رسالة (١٩)

الثاني عشر من أكتوبر. عام الجائحة

إعلان حُبّ

***ذَكَرْتُكِ بين ثنَايا السُّطور**

وأضْمَرتُ قَلْبِيَ بين الكَلِمْ

ولَسْتُ أَبوحُ بما قدْ كَتَمْتُ

ولو حزَّ في النَّفْسِ حَدُّ الألَمْ*

أبو فهر محمود شاكر

عزيزي،

سأخبرك عن أمرٍ عظيم، يمكن اختصاره على عِظَم شأنه في كلمةٍ واحدة، ثقيلة على لساني ثقلًا تسبّب فيه حيائي وخجلي، وتسبب فيه جهلي بوقعها

عليك ومكانها عندك، ثِقَلٌ ينبع من عزّتها وعزّة من يقولها، وعِزّة من تُقال له، كلمةٌ ثقيلةٌ ثِقَل وجودها في القلب، ورسوخها فيه، وتشبُّث جذورها بأرضه، فلا يُنزَع منها إلّا بانتزاع القلب من الصدر والروح من الجسد، بل العجيب أنّ كلّ هؤلاء يزول إلّا هي، ستبقى بالمعنى وإن ذهب المبنى، وستبقى بالرواية وإن ذهب أبطال الحكاية، رواية بسندٍ متّصِل إلى المرة الأولى التي سأنطق بها أمامك؛ في خجلٍ متلعثمة: *أحِبُّكَ*.

***

رسالة (٢٠)

الخامس عشر من أكتوبر. عام الجائحة

شوق العصافير

*** يا طيفهم خُذني إليهم ساعة**

فعساي أرجع بالفؤاد وهُم معي*

مصطفى صادق الرافعي

لقد صار صوت العصافير مرتبطًا بك ارتباطًا حميميًّا وثيقًا، صرت أسمعه طيلة اليوم وليس في الصباح الباكر فقط كما كنت أفعل، صار صوتهم أعلى وأكثر وضوحًا عن ذي قبل، وكأنّهم يتساءلون عنك مثلي، يبدو أنّهم تعلّقوا بذات الحبال التي تعلّقت أنا بها، حبال الهوى الموصلة إليك، اشتاقوا مثلي إليك، أو اشتقت إليك مثلهم، وجافيتهم مثلما فعلت معي، لقد أعجبوك.. هل تذكر؟!

استمعت إليهم، وسألت عنهم، وأعجبهم ذلك كثيرًا.. وأعجبني.

أظنّ أنّهم لم يعتادوا مثلي أن ينتبه أحدٌ إليهم!

مساكين! أحبّوك لمّا سألت عنهم، وبكوك لمّا غبت عنهم، وها هو صراخهم يعْلو خلفي متوسلًا رجوعك، ممسكًا بجلابيبي كي أبلّغك سلامهم وسؤالهم واشتياقهم وحنينهم، أُبلّغك سلامهم وسلامي، سؤالهم وسؤالي، شوقهم واشتياقي، حنينهم وحنيني، ووجعهم وبُكائي!

وكلّ شيءٍ لا تعلم عنه شيئًا؛ أنت يا من لا تعلم.

أنتَ الذي أتوسّل إليك أن تعلم.

***

رسالة (٢١)

السابع عشر من أكتوبر. عام الجائحة

حافية القدمين

***البقاء مع شخص تحبّه وأنت تعلم أنك ستفارقه، كاللعب تحت المطر، مُمتع، لكنك تعلم أنك ستمرض لاحقًا*.**

غسّان كنفاني

لقد بقي حلمُ السّير حافية القدمين على الشاطئ؛ غصّة في حلقي، إذ أنّك وعدتني أن نُحقّقه سويًّا، هو حلمٌ قديم، قبل أن أعرفك، لكنّه ارتبط بك هو الآخر، تمامًا كصوتِ العصافير، مرتبط بك مثلي.

بقيت أرقب قدميّ العاريتين بشفقة، أُمررهما تحت ماء الصنبور تارة، وماء المرشّ تارة أخرى بلا جدوى، هذا لا يُشبه موج البحرِ أبدًا، لا يُشبه دغدغة الرمال المبللة ومداعبة الزّبَد، لا يُشبه أن أسير إلى جوارك على شاطئ البحر، ونتحدّث بلا توقّف، بالصوت أو بالصمت، لا يهم، فأنا أُجيد التحدّث بكلتا اللغتين، ويُرضيني منك صوتك وصمتك على حدّ سواء. لا يهم كلّ هذا، وحدها الرُفقة هي التي تعنيني، رفقتك على أي حالٍ كانت، ماذا لو لامست بقدمي ألف موجة وموجة وقد خلا الجوار منك؟!

عُدْ إليَّ بالوعدِ أو بدونه، المهم أن تعود، ببرودة البحر ودغدغة الرمال، أو دفء أصابع قدميّ إذا ما اندسّتا في فراشٍ دافئ يجمعنا سويًّا كزوجين قد شابَ شعرُ رأسيهما على وسادة واحدة صُنِعَت بحب!

أعدك ونفسي عندما ترجع، سيكون أوّل ما أرغب في القيام به معك؛ هو أن أسير بجوارك على شاطئ البحر،

ذلك المكان الذي أحبّه في وجودك، وأكرهه في غيابك، فقد حرّمت على نفسي أيّ حظّ من السعادة لا تُشاركني فيه،

وأعدك أنْ أسير حافية القدمين لتغوص قدماي في الرمال الساخنة،

كي أتأكّد أنّ كلّ ذلك حق.. أنّه ليس بوهمٍ أو حلم.

ألفح وجهي بلهيب الشمس، وأرى نورَ وجهك قد غلب نورها.. وأتساءل: هل هذا حق؟!

هل أنت هنا معي.. بجواري، والتصقت الرمال بباطن قدميك تدغدغهما كما فعلت معي؟!

كُنت أحبّ قديمًا أني أُشبه البحر، يُشبه سكوني هدوءه، ويُشبه غضبي أمواجه، مثله كُنت كثيرة الاستماع نادرة البوح.

لكنّي الآن صرت موقنة أني أُشبه السماء؛ أنا وهي مثل روح وانعكاسها على سقف أزرق.

ليستْ مُصادفة أبدًا أنّها تبكي الآن مثلما أفعل، فَلَكَم شَابَه صفاؤها إشراق روحي.

ودموع السماء، أمطارها، هي غيث الأرض وروحي المُتعبة، هي بُشرى إجابة الدّعاء.

***

رسالة (٢٢)

الثامن عشر من أكتوبر. عام الجائحة

وصلٌ نقيٌّ

كطيفٍ جميل قبض عليه بروحه برهة من زمن، بحساب القلب عدد سنين..

ثمّ مرّ كأنْ لم يكن كدأب العابرين في السبيل، الراحلين..

وفي فجأة مَن بُعث؛ عادَ طيفًا مثل اسمه يَسُرّ الناظرين..

هلّا بقيت! هلّا انتظرت أم أنّك رحلت وأبقيت الحنين؟!

عزيزي،

(أجمِل بوصلٍ في البُعد أنقى من قُربٍ مُبتَذل).

هكذا صرت أزيّن رسائلي بكذبٍ أتعمّده إشفاقًا على روحي التي ملّت الانتظار وقلبي الذي أرهقه البُعد ونفسي التي ضجّت بالوحدة.

تخاصمَا في روحي حتى بغى الاثنان عليّ، عزة نفس تُقصيني وشوق يُدنيني فتولد رسالة إليك.

كلّ وليدٍ جديد ينثر الذكرى عبقًا، وأقدم الرسائل خطًّا أعتقهم شوقًا، فلا القديمة هرمت وماتت وطمستها الأحزان، ولا الجديدة جلبت إلّا مزيدًا من الحرمان.

ودواء التعلّق الهجر إلّا رسائلنا؛ ذاكرة لا تشيب ولا يغلبها النسيان.

دعْني أُحدِّثك اليوم حديث نفسٍ؛ ككلّ أحاديثي معك، غير أنّه حديث لا يصف مواقفنا بقدر ما يصف شعوري الذي أبطنه في نفسي، فأنت تحيا هناك في مكانٍ ما بداخل نفسي.

أريد أن أحدِّثك عن هذا التغيّر الذي حدث في نفسي لمّا عرفتك، عرفت معك أنّه مازال بإمكاني أن أحبّ، أن أتمنى، أن أرغب، أن أعيش، أن أفرح، وأن أحزن، أن أنتظر وكلّي أمل، وأن أيأس وأفقد الأمل...

عرفت معك كيف أخاف، وكيف أطمئنّ وأُلقي بجميع مخاوفي خلف ظهري، لقد عرفت معك كيف أشعر!

أنا التي كُنت قد فقدت بوصلة الشعور من زمنٍ بعيدٍ مضى، عرفتك وعرفت معك؛ ولمّا تعرف عن هذا كلّه شيئًا بعد...

أنت الذي لا تعرف، أنت الذي وددت أن تعرف!

***

رسالة (٢٣)

التاسع عشر من أكتوبر. عام الجائحة

أيّامٌ خَلَت، وأيّامٌ تَلَت

***تبدو كأنْ لا تَراني.. ومِلءُ عينِكَ عيني.. ومثل فعلك فعلي.. وَيْلِي من الأحْمَقَين.**

مولايَ لم تُبْقِ منّي.. حيًّا سوى رَمَقينِ.. أخافُ تدعو القوافي.. عليك في المشرقينِ*

بشارة الخوري

إنّ رسائِل المُحبّين لا تُقرأ ككلّ الكلام، ولكن يُنتَبه فيها إلى ما بين السطور وما خلف الصُّوَر، النّظر في ثنايا الأحرف وبين طيّات الفِكَر، في ابتسامة لم تُلقِ لها بالًا، وكلمة نُطقت بدون حرف، وسَرْح بَصَر في المدى لم تقصده، أفاض من العين العِبَر!

تلك الأيّام القليلة التي سبقت لقائي بك كانت أيّامًا ملوّنة بحق، ملوّنة بلون الشّوق، وبها مسحةٌ من خوف، وأثر من قلق، والكثير الكثير من الأمل والانتظار، كم أتعبني حينَها طول الانتظار، وكم أشتاق الآن إلى هذا الانتظار الذي يأتي بك مهما طال أمده.

عندما التقينا جَبَرت قلبي بلونِ السّعادة التي ملأت الوجود، وغيّبت بصفائها كلّ موجود.

ولكنْ.. ماذا عن تلك الأيّام التي تَلَتَ أيامًا خَلَت؟!

أيّامٌ خالية منك ومِن حديثك، ومن أثرك، ومن انتظارك، ومن الأمل في لقائك!

أيّامٌ مليئة بغيابك، والغيابُ لا لون له، الغياب هو اختفاء الألوان.. تماهي الحدود.. زوال الأثر!

الغياب ممتلئٌ بالوحدة وبالضَجَر، سماءٌ مظلمة لا شمس فيها ولا قَمَر، الغياب بردٌ زمهرير ونارٌ تستَعِر، الغياب أبكم لا ينطِق إلّا كما ينطِق الحَجَر، الغياب رحيلك وإن حَضَر كلّ البَشَر، الغياب هو قدري معك؛ ومن يملك إلّا اللهُ تغييرَ القدر؟!

فارسُ الكلمات

***عتمة مُظلمة**

أضاءها قنديل

كمثل البدر

في ليلٍ طويل

فارس علَى جواده

كريم أصيل

وبريق نصْله

حرف جميل

يصول في الساحات

شروح وورقات

فيكتبُ الكلمات

تسمع لها صهيل*

***

رسالة (٢٤)

العشرون من شهر أكتوبر. عام الجائحة

تساؤلات موجعة

***هذه المرأة الحديديّة تتحوّل في لحظة ضعفٍ إلى امرأة حريرية؛ إنّها لوعةُ الفِراق، خاصّة إذا كان فِراقَ مَن تُحبّ*.**

أيمن العتوم

عزيزي،

يومٌ بدونك؛ سقط من عمرِ القلبِ سهوًا!

لماذا لست إلى جواري؟

لماذا لست معي؟ لم أشعر بوجع الوحدة كما أشعر بها الآن! ولكن لماذا؟!

ألم أكن وحيدة قبل أن ألقاك!؟

بلى.. كنت وحيدة بدونك.

أقصد وحيدة بدون معرفتك، وحدة اعتدتُها فصرت أشبهها وتُشبهني، أمّا بعد أنْ عرفتك أنكَرَتْني وحدتي، صرت غريبة عنها، كفرت بها وآمنت بك، بوجودك.

ذُقت طعمَ الرّفقة ولو لساعات معدودة، ذُقت طعمَ وجودك، فعرفت كيف يكون الفراغ بعدَك موجعًا حتّى هذه الدرجة التي تستجلب دموع العين أنهارًا، ونزف القلبِ مدرارًا، وطعم الفقد والخُذلان بعدَ الرفقة يعاودني مرارًا وتكرارًا.

أسألُ خيالك في قلبي: لماذا لست هنا؟

فيُجيبني: ألا يكفيك وجودي بقلبك؟

لا يا حبيبي لم يعدْ يكفيني.. فأين أنت حقّا؟!

لماذا لستَ بجانبي؟

أشعرُ بالخوف وأعرف أنّه كان ليزول عنّي لو أنّك تُمسك بيدي بين يديك.

أتعرف! لم أشعرْ بمثل هذه الوحدة من قبل، ولا بمثل هذا الألم، لم ينقبض قلبي حتّى هذه الدرجة، لم أحتجْ إلى وجودك ولا وجود أي أحد بتلك القسوة من قبْل؛ مثلما أحتاج إلى وجودك أنت الآن.

للمرّة الأولى يؤلمني الغيابُ على وجه الحقيقة لا وجه التخيّل، للمرة الأولى في حياتي أطلبُ ما هو أكثر من الخيال؛ أطلب المحال، أطلب من طيفك أن يتمثّل.

أستبدلُ الغياب بحضورك، والوحدةَ بوجودك، وظُلمة يأسي بنورك.

لو كان يحقّ لي أمنية أخيرة لتمنّيتك، ولو كان لي دعوةٌ مستجابة لدعوت الله أن تشعرَ بي.. أن تعلم..

أنت الذي لا تعلم..

أنت الذي أدعو الله ليلَ نهار أن تعلم، وتفهم!

***

رسالة (٢٥)

الحادي والعشرون من أكتوبر. عام الجائحة

ذات حُلم

في علاقتي مع الآخرين جزءٌ طفيف منّي يتوسل المواصلة، جزء هائل منّي يرغب في الهروب

كافكا

ذاتَ يوم التقينا على طريق مُبْهم..

لا تعرفه.

ولا أعرفه.

إليه انتهينا

أم أننا بدأنا؟.. لست أدري.

التقينا في الخيال في ظلِّ شِعر أو سماء مقال

أو ضفّة نهر من معانٍ تسري.. لست أدري

لم نلتقِ ذات يوم؛ بل ذات كلمة.. ذات نظم

أو قُل *ذات حلم*!

لستُ أدري

كان الحلم قصيرًا، أقصر ممّا ينبغي

وبقي الألمُ طويلًا، أطول ممّا ينبغي

لعلّي بقدْر حاجتي إليك أحببتك، فأحببتك أكثر ممّا ينبغي

وبقدْر وجعي على فراقك لي، أفتقدك.. أشدّ ممّا ينبغي!

أجملُ ما في الأحلام أنّها تأتي موافقةً لهوى الروح.. فيها كلّ ما تهواه النفس ويقرّ به القلب.

فكيف إذا كان الواقع أجملَ من الأحلام أحيانًا، حتى ترتبك الروح ما بين اليقظة والنوم.. في أيّ حال هي؟ لا تدري!

أجملُ الأشياء التي زارتنا حلمًا، وتعلّقنا بها دهرًا؛ إذا ما أوشكت أن تتحقق، كُنّا إلى الفراق خوفًا أقرب من البقاء شغفًا.

ورغمَ كلّ الحواجز التي تحول، وكلّ الذي يصول ويجول بيننا في ساحة الأيّام؛ فلقد أُريتك في المنام!

***

رسالة (٢٦)

الثّاني والعشرون من أكتوبر. عام الجائحة

مُبصِرَةٌ بالحُب

***وَشُغِلتُ عن فَهْمِ الحَديثِ سِوَى**

ما كان مِنْك وحُبُّكُمْ شُغْلِي

وأديم نحو محدّثي ليرى

أن قد فهمت وعندكم عقلي*

قيس بن الملوح

كالكفيف معك أنا، أسرحُ في صفحةٍ مُظلمة حالمة، مُغمضَة العينين لا أرى بهما، جَعلت بصري في مسامعي تارة، أتحسس الأشياء بصوتك وأراها حسبَ وصفك لها، لا يعنيني إلّا كيف تراها أنت، وكيف تعيها أنت، وتارة أجعلُ بصيرتي في أناملي، أتحسّس بهم كُتُبك في رحلة سفر إليهم حيث الخيال، أمرّر أطراف أصابعي على الأسطح الجلدية والورقية أتلمّس أثرك لعلّ كفّي يلتقي في الظلال مَسَّ كفّك، وأشمّ في رائحة الكُتب عبقك، أتتبع أثرَ المُحال في الخيال، وأدرك أنّي قد عرفتك قبل يوم لُقيانا بألف عام، صادفتْ روحي روحك

فتعارفتا وتعاهدتَا على وعدٍ باللقاء.. والبقاء.

والتقينا بعدَ عهدنا الأوّل أكثرَ من مرّة، في رسالات الأُدباء وتحريرات الفُقهاء، وفي قوافي الشُعراء؛ حيثُ الحقيقة والخيال لا فرق بينهما.. الكُلّ عند اللقاء سواء.

كم أعشقُ هذا العالم، وكم أسعد بلحظاتي فيه، ذلك العالم الذي أترك واقعي على أعتابه، وأمُرُّ عبرَه إلى عوالم أخرى كُلُّها جميلة، أعيش فيها ساعات من السعادة، أشعر معها أنّي لا أكبر أبدًا، تأخذ من ساعاتي وتُعطيني عمرًا فوق عُمُري بشرط إبقائي صغيرة، فتاة ذات ضفيرة، وأوراق وأقلام وتجارب كثيرة.

وعندما أعود لواقِعِي وما فيه، لا أعود أبدًا صِفر اليدين، أرجع ومعي رسائلُ اليقين، أعود بداخلي شوق وحنين يُرجعني إليه في أقرب حين.

تعلّمت منك الكثيرَ يا عزيزي، وكان يُسعدني أن أرقب في مِحرابِ علمك؛ كم أنا جاهلة!

***

رسالة (٢٧)

الأوّل من نوفمبر. عام الجائحة

يا روحَ الحياة

***هَفا.. فرَنا.. فضجّ.. فثَار.. شوقٌ**

سليبُ الكبرِ.. ذو خجلٍ.. عنيدُ

يؤرّقُه الوصالُ.. ولا وصالٌ

ويقتلهُ الصدودُ.. ولا صدودُ*

غازي القصيبي

يا روحَ الحياة الباقية في البعض؛ إليكِ عنّي..

لا تتسلّلي إلى غيابة الرّوح منّي..

بقدْر الحاجة إليك أخافكِ، ويُعييني ظنّي..

إنْ كان الظنّ حسنًا، يُغريني مثل التمنّي

وإنْ كان معدومًا فاليأس موت..

والميّت تزهده الحياة؛ فإليكِ عنّي.

حينما كُنّا على نفس الضفّة وإن تباعدنا، كُنت أحلم بيوم تفنى فيه المسافاتُ

ـَ

وتقتربُ الخطوات، ونلتقي لنرقب سويًّا الشاطئ الذي جمعنا على البُعد.

ولكن، أن تُلوّح لي الآنَ من الضفّة الأُخرى وتظنّ أنّي أملك من السذاجة ما يُحيل النهر دربًا يوصلني إليك، وأملك من العمر دهرًا فلا أخفي عليك؛ قد جانبتَ الصواب.

لا بأسَ أن تُبحر إليّ فلستُ بمفارقة ولم أخن يومًا معنى الوفاء،

لكنّ السعي صار حتمًا لازمًا عليك، حتّى يُتبَع اللقاء الأوّل بألف لقاء،

بل حتّى يُسمح لنا ببقاء لا يعقبه هجر أو فناء.

عجبًا!

وهلْ لديك متّسعٌ من العمر لمزيد من التردّد دون أن تتخذ القرار، لمزيد من المكوث البارد على أرصفة الانتظار!

سرعانَ ما سوف تُكَبُّ على وجه الحقيقة شئت أم أبيت، بدون اختيار!

***

رسالة (٢٨)

الرابع عشر من نوفمبر. عام الجائحة

أنتَ روحي

عزيزي،

إنّ حاجتي إليك كحاجةِ جسدي إلى الماء، تهطل بوجودك على نفسي كهطول قطراتِه على أرضٍ جدْبى، أتوق إليك وأشتاق؛ كفمِ الصائِم لمّا جفّ ريقه عطشًا، يحتسب أجرَ التعب كلّه مع أوّل رشفة تُبلِّلَ أرجاءه.

إنّ مشاعري تجاهَك هي الملاذ الآمن لقلبي الخائف، والتسليّة الوحيدة لذلك القلب المُثقل بالوحدة.

لا أتصوّر حياة لقلبي دون أن ينبض باسمك، هل تعلم ما الذي يعنيه أن أتّخذ قرارًا بالتوقّف عن انتظارك؟ بالتوقّف عن حُبّك؟!

هو أمرٌ من الاستحالة بمكان، أمرٌ لن يطاوعني قلبي عليه، ولن تستجيب جوارحي له.

وروحي؛ هل تعلم ما الذي ستفعله روحي؟ بالطبع تعلم.. فأنت، أنت روحي.

***

رسالة (٢٩)

الحادي والعشرون من شهر نوفمبر. عام الجائحة

خاصمتُ الرسائل

النّجمة البعيدة تُذكّرني بك

بأنّ ظلمة الروح مُقبضةٌ

وأنت، أنت الضياء

تسألني..

كيف حالي في وحدتي؛ بدونك؟

أسألها..

كيف حالك؛ وحدك في غيابي؟

أيّها النّاظر إلى السماء!

لم أخاصمِ الكتابة عمومًا، لكنّي كنت قد خاصمت كتابة الرسائل تحديدًا، ولم أهجرِ الجميع، ولكنّي هجرت ظلّك الممتدّ على ظهر قلبي،

وها أنذا أُصالح الأحرف والأوراق والرسائل، وأربّت على ظلّك وأهمس أنّي مشتاقة إليك.

كان ينبغي أنْ أعلم أنّ حبّي للفلسفة لن يُفضي إلى خير، فقد دفع بي إلى أحضان محبّة فيلسوف عصبيّ المزاج، متقلّب الحال، لا يكاد يُطيق نفسه فضلًا عن أن يُطيقه أحدٌ من الناس، هكذا كنت تقول مُحدِّثًا عن نفسك، هكذا تُخبرني وتبتسم، ويبتسم إليك قلبي المُعلّق على أعلى شجرة في غابة نفسك المُتشابكة المهجورة، تلك المهجورة من الناس جميعهم؛ وليس فيها أحد إلّاي، رغمًا عنك، ورغبة منّي، لا غُربة فيها رغم الوحدة، بيدَ أنّ غربتي كانت يوم الحُكم على قلبي بالذهاب إلى المنفى، عندما طردتني عنك منفيّة، لا وطن ألجأ إليه، ولا مكان لي عندك كي أمكث فيه.

تائهةٌ بلا ذاكرة تدلّني كيف السبيل، كلّ الأشياء منسيّة فيما عداك، وكلّ الأماكن غريبة سوى قلبك، وكلّ الناس أستوحش منهم ومعهم، ولا أنس إلّا في وجودك أنت، أكتب إليك عنك، وأشكو إليك منك.

وأبكي.. وأحكي، ولا شيء يربط على قلبي المُعلّق بك.

أقسمت على الكلمات ألّا تهجرني إليك، فتركت رسائلي خاوية على عروشها، لكنّ الأطلال تنطق.

ليتَ شعري لو أننا عُدنا، كانوا وكنّا، رحلوا وتفلّت الصبر منّا.

أجْهدني حديثُ الفِراق واستنزف الروحَ منّي فلم يُبق منها ما به تتصبّر على البقاء.

وعلى ناصية الحُلم سأصنع اللقاء، على مثال من خيال، قلّ أن يجود الواقع به، سأرسم تفاصيل الرجوع الجميل من غياهب الهجر الطويل.

سأرسم بحروفي عالمًا ليس فيه إلّا أنت، أختبئ فيه من عالم أنت لست فيه، سأكتبُ أماكن تحتوينا، وسعادة تسعى بين أيدينا، أشياء وأشخاص شهدت على فراقٍ أماتَنا يومًا فأشهدها افتراءً على لُقيا تبعث الحياة فينا.

ما بالُ تفاصيل ادّعاء اللقاء أكثر تعقيدًا من بساطة الفراق الصريح؟! أم أنّها وجه آخر للوجع أكثر إيلامًا، تالله إنَّ تخيّل اللقاء يزيد من ألم الفراق ويجعله بلا انتهاء، إنّما نقيض الفراق لقاء، وبضدّها تتمايز الأشياء.

***

رسالة (٣٠)

الثامن من شهر ديسمبر. عام الجائحة

في عشق كفّيك

عزيزي،

هل تعلم أنني قد وقعت في عشق كفّيك؟!

كان هذا من أعجب ما حدث لي معك، وليس العجب في حُبّي للأكفّ المميّزة، والأصابع الدقيقة الطويلة، فربّما كان الحبّ أو الإعجاب مرجعه روحُ الفنان بداخلي، ولكنني كُنت أنتبه إلى أكفّ النساء في العادّة، إذ أنّها في الغالب هي الموصوفة بالجمال والدقّة والرقّة، فكيف لي إذن أن أقع في عشق كفّي رجل، تامّ الرجولة.

كفّان دقيقتان ككفّي فنان، حادّتان تُشبهان طبعك في الحدّة، وجريئتان تُشبهان عينيك، قويّتان تُشبهان قوّتك في الحُب، وقوّتك في الكراهية، كفّان عنيدتان تُشبهان عنادك في اللقاء والبقاء، وعنادك في الهجر والفِراق.

أحببت كفّين لن تُحيطَا بكفّي يومًا ما، والممنوع مرغوب ياعزيزي، وإن حُيّرت لاخترت اجتماع الأكفّ، غير أنّ فراقهم الحلال خيرٌ من اجتماعٍ في حرام.

كُنتُ أُطيل النظر إليك في لقاءينا القصيرين الطويلين البعيدين.

كنتُ أُطيل النظر إليك في غفلة منك، يُشجّعني على فعلي أنّك غالبًا ما تصرف النظر عنّي، فأنظر إليك نيابة عنك وعنّي، فأُطيل النظر، ولا أدري لماذا لم أخف حينها، لم أنتبه؛ أنَّ عادة من يُطيل النظر إلى شيء كأنّما يتعجّل فراقه، فيدّخره ملء العين والقلب كي تظلّ الصورة حيّة معه بعد الفراق، وكلّما طال النظر كان كأنّه مُبشِّر بطول الفراق.

يا بُعد ما بيني وبينك الآن، أتراه ينفعني الآن ذنب إطلاق البصر؟!

***

رسالة (٣١)

التاسع من شهر ديسمبر. عام الجائِحة

وِحْدَة

***بعتّلك يا حبيب الروح**

بَعتِّلك روحي

وقلتلك مادام هتروح

خُد معاك روحي*

زياد الرحباني

الجلوس وحيدًا يؤكّد إحساسك بالوحدة، وبالعُزلة، يُجلّيها لك بصورةٍ مُفصّلة، يواجهك بها بحيث لا يمكنك الفرار منها، يُجبرك أن تعتنقها، وأن تُشاكسها، أن تكرهها ثمّ ترضخ مُكرهًا إلى محبّتها؛ إذ أنَّها الوحيدة الباقية معك عندما رحل عنك الجميع، ورحلت أنت عن الجميع.. فبقيت هي وحدها معك.

دعني أحكي لك بعد غياب قصتي مع وحدتي في الغياب،

تتجلّى ذاتي في الوحدة تجليًا نقيًّا،

أكون أنا كما أنا...

لا يُخرجني عن أصل طبعي أذى كلّ ذي أذى

لا أكون في الوحدة ردّ فعلٍ لأي فعل لا ذنب لي فيه..

تتحرّر روحي من أسر الغير..

تسيل دموعي إنْ شاءت أن تسيل دون أن أخشى أن يراها أحد، فليس هناك في الوحدة ثمّة أحد!

وأبتسم بحنينٍ لكلِّ منسيٍّ رغمًا عنّي، ولا يضرّني في وحدتي بعض شوقٍ إليه، فالحنين إلى الأحبة في بيداء الغياب مُلتَحَد.

تتجلّى ذاتي المُتْعَبة، كأحمال ثقيلة قد غاب عنها الوَتَد.

كفاقد الشيء أنا في وحدتي، كلّما ظنّ أنّه اهتدى إليه ووجده؛ ضلّ عنه وما وَجَد!

***

رسالة (٣٢)

الثاني عشر من ديسمبر. عام الجائحة

حكاية مبتورة

***وقالوا: بعيدٌ، قلت حسبي بأنه**

معي في زمانٍ لا يطيق محيدا

تمرّ عليّ الشمس مثل مرورها

به كلّ يوم يستنير جديدا

فمن ليس بيني في المسير وبينه

سوى قطع يوم، هل يكون بعيدا؟

وعلم إله الخلق يجمعنا معًا

كفى ذا التداني، ما أريد مزيدا*

ابن حزم الأندلسي

بدتْ إحدى رسائلي إليك خاوية تمامًا إلّا من سطرٍ واحدٍ كتبت فيه:

مُعلّقة حكايتي المبتورة على مشجبٍ من أحرفٍ متراصة، مُتجاورة، تبدو وكأنّها.. اسمك!

أكتبُ رسائلي إليك بخطِّ اليد، فإنّ ألف رسالة الكترونية لا تُغني عن رسالة مكْتوبة في مظروف ورقي، تشمّ فيها عطر كاتبها، وترى في خطِّ يده ما لا يوصَف بكلمات، تطوي الأيّام بانتظارها وتقرأ بشغف ما فيها، وتظل تقرؤها مرّة تلوَ الأخرى وكأنّ الأحرف ستنطق بجديد، وقد تفعل!

وتبقى الرسالة شاهدًا على ما كان، نقشًا في جدار ذاكرة القلب لا يُمحى.

ألا بُعدًا لكلّ ما أفنى أثر القديم الجميل، وهلّا قُربًا لكلّ ما يُقربني منك زُلفى ويُذهب مرار الهجر الطويل!

ولا تنسَ أنّ الأرواح إذا اتصلت طُوي عنها البُعد، وتَجَلَّدَت أمام الفقد، واختلفت لأجلها حسابات الزمان والمكان.

عن الحنين أكتب،

والحنينُ هو أن يهفو القلب لشيء ليس هنا، بعيد صعب المنال، لا يُدرَك إمّا لأنّه انضوى إلى الماضي، أو لأنّه يختفي خلف حُجُب الغيب المُنتظر، رسالاتُ الحنين تصل إلى القلب من حيث لا يدري وصولَ موجِع، فلا يقرّ له قرار ولا تسكن له روح.

الحنينُ للذكرى موسمي؛ تثور تفاصيله على النسيان كلّ شتاء، لكنّ بعض الحنين مُزمنٌ لا يعقبه نيسان[2] ولا يُرجى منه شفاء!

إنّ المشاعر الصادقة المُخلصة بأيّ لُغة تُقال، وإن كانت بصمت؛ فهي رسالاتٌ تصل!

وسُبحان مَن جعل في صمت البعض كلّ المعاني، وفي موجز القول ما يُغني عن مُطوّلات الكلام.

***

رسالة (٣٣)

الخامس عشر من ديسمبر. عام الجائحة

أنتَ الوجع

عزيزي،

إنْ سألوني يومًا عنك، سأُجيبهم واصفة لك وأقول: (أنت الوجع)!

أنتَ الوجع الذي اسْتعذبته يومَ التقيتك، فقد تراءيت لي وجعًا مُنذ البداية، بل إنّك أخبرتني ذلك عن نفسك؛ لمّا قلت:

أنا نفسي بالكاد أتحمّل نفسي

ربّما أخبرتني ذلك عن نفسك من باب الأمانة، وربّما مهّدت بها طريق الوجع أمامي، قدّمت حجّتك بين يديّ التخلّي، وتركت قولك عُذرًا، لكنّه أقبح من ذنب الرحيل بلا سبب.

نعم.. أنت الوجعُ الذي استعذبته، وأنت المُسافر بلا رجوع، وأنت الراحل بلا سبب.

أنتَ الذي تستحيل حياتي بدونك، وتستحيل في وجودك، بفلسفة الوجود العبثية والعدميّة البائسة، ومنطق السهل الممتنع، وفقه الواقع المُرّ الذي يمنعني عنك، ويمنعك عنّي.

يبدو كلامي كالهذيان، ويبدو حُبّك كالإدمان فأنا أقوى من كلّ حائل بيننا، لكنني أضعف من النسيان.

لو أنّ حُبّك بالإمكان..

لوجدتَني عندما ترجو، وفوق ما تصبو، لكنّك الوجع الذي كان.. وليته ما كان!

وليس الوجعُ بالذي نحكيه، لكنّ الوجع هو ما نكتمه فيشكونا لِنَبكيه!

***

رسالة (٣٤)

الثامن عشر من ديسمبر. عام الجائحة

مُحدِّثًا عن نفسه

كأنّ صخرةً نبتت حيث قام، تمثالَ حزنٍ صلودٍ عُتُل

محمود محمد شاكر. القوس العذراء

إنّ أشدّ الناس نقاوة هذا الذي رأى نفسه جليّة أمامه، واستحضر عيبها، ويكاد لا يرى فيها خيرًا، ويعلم أن الخير إن كان فمن الله وحده.

فدعني أُحدّثك عنك بلسانك، وأستعير منك لفظك وكلامك، وأتلبّس ثوب بيانك، وأقول:

أنا عصبيٌّ حادُّ المزاج!

كأنما خُلّقت ن نارٍ ولم أُخلّق من طين، أثور وأرغي وأزبد فلا أستكين، وأشتدّ في أمري وأعند فلا يعرف قلبي اللين، لا وسطيّة عندي؛ فإمّا أقصى اليسار أو أقصى اليمين، وكأن القُرب منّي جهنّم التي يُستعاذ منها كما يُستعاذ من شيطانٍ لعين، أُحبّ الجمال حتّى غايته، وأكره القُبح برمّته فهو عندي مَهين.

نفسي كمسرحيّة هزليّة تُضحِك الرائين، بينما وراء ستارها أخبّئ قلبي المسكين،

وحدي بعُزلتي متلذِّذٌ، متوحَّدٌ، مُتَفَرِّدٌ، مُتألِّم.

إنّي أحَذّركِ أن تقتربي منّي، وأمنع عنكِ أن تبتعدي!

***

رسالة (٣٥)

العشرون من ديسمبر. عام الجائحة

أحلامٌ مؤجّلة

***من للمُــحب ومن يعينه**

والحـــــب أهنؤه حزينه

أنا ما عرفـــــت سوى قسا

وتـــــه فقولوا كيف لينه

إنْ يُقْضَ دين ذوي الهوى

فأنـــــا الذي بقيت ديونه

قلبي هو الذهـــــب الكريـــ

ـــم فلا يفارقه رنيـــــــنه

قلبي هو الألمـــــــاس يعـــ

ـــرف من أشعـــته ثمينه

قلبي يُـــــــــــــحب وإنما

أخلاقه فيـــــــــه ودينه*

مصطفى صادق الرافعي

عزيزي،

مُقيّدٌ أنت في هامش الأحلام المؤجّلة؛ كمرجعٍ فيه أصل الأمنيات وصورة السعادة المثالية، ومتن الحكاية فيه الكثير من التفاصيل التي تحتويك أو تُشير إليك أو تفرغ منك بظاهرها وقد امتلأت بك في فحوى الكلام واقتباساته وتراكيب التعبير وتشبيهاته.

بسطت دفترَ العمر بين يديك لتقرأ وتكتب، لتعي وتفهم.

لتكون أمينًا على مخطوطة نقشتها بأنامل الروح، وكتبتها بمداد القلب ونفثت فيها أنفاسي.. مخطوطة من نُسخة واحدة فارفقْ بأوراقها القديمة كقِدَم وجودك الأزلي فيها.. وارفقْ بروح متجددة الوجود فيها موصولة بشباب إحساسها بك.. تهرم وتصفر وتذبل لكنّها شابّة بك خضراء تسكن إليك، نضرة تستمد الحياة منك!

***

رسالة (٣٦)

الخامس والعشرون من شهر ديسمبر. عام الجائحة

على شاطئ الحَيرَة

عزيزي الخائِف،

يبدو لي أحيانًا أنّنا نُجيد الحديث عن الأشياء ولا نُحسن العمل بها، نستعذب الأحلام ونستغرب أن تتحقق يومًا!

نستطيل الطريق ونُكثر الشكوى من غياب الأُفق؛ حتّى إذا ما تجلّى لنا الماء قُلنا هو سرابٌ كما اعتدنا، وكرهنا أن نجد فيه سُقيا الراحة حقًّا.

أهوَ طول الخُذلان أم غياب الأمل؟

أم أنّ جمالَ الطريق هو رحلة السير، والوصول نهاية، والنهايات مُخيفة.

قُلنا إنّ الرماديات قبيحة، فما بالنا نخشى دهشة الألوان!

عزيزي المُفارِق زُهدًا،

جميلةٌ هي الأحلام عندما تتحقّق، وشقاء أنْ نحلم بأشياء يستحيل أو يتأخّر تحقّقها، لكن ماذا عن تلك القطعة من العذاب، عندما تُقابل على حين فجأة دون تصوّر وانتظار حقيقة أجمل من كلّ ما حلمت به يومًا، فتتجلّى لك عند المجيء على مثال أحلامك جميعها مجوّدة بما لم يخطر لك يومًا ببال، وتظلّ

حينًا من الدهر تقرّب منها كفّ روحك تتحسّسها لترى هل هي حقيقة أم خيال؟

وعندما يتبيّن لك على وجه اليقين أنّها حقيقة قد تهيّأت لك مثل عروس في ليلةِ زفافها، حتّى إذا ما أذنت لك بالدخول عليها تلاشت كأثارة من حلم.. أو وهْم، لا.. لم تكن وهمًا، وهي أجمل من كلّ حلم، لكنّها ذهبت بنفس الفجأة التي جاءتك بها.

تركتك أشعثَ القلب أغبرَه لا تملك حقّ العودة إلى حُلمك القديم الذي صار هزيلًا أمامها، ولا تقوى رِجْلاك على حملك فتقف على أرض الواقع الذي صارَ كلّ شيء فيه أدنى من أدنى منزلة من تلك الحقيقة الحالمة الواهمة التي دنت فتدلّت فتعلّقت بها روحك وأبقتك معلّقا بها، أسيرَها.

فلا أنتَ تعود حيث كنت قبلها ساذج الحلم قنوع الروح، ولا هي بعائدة إليك فتبلّغك سماوات من سعادة كانت تلوح، وجاءت فقط كي تقصف عمر أحلامك وتتولّى عنك ثمّ تروح.

***

رسالة (٣٧)

الثامن والعشرون من شهر ديسمبر. عام الجائحة

أسرٌ بلا فكاك

المرأة التي لا زوج لها منفيّة وإن كانت في دارها، لأنّ وطن قلبها الرجل

مصطفى صادق الرافعي

عزيزي الزاهد،

كان قول (الرافعي) كفيلًا أن يدفع بناصية الروح يكبّها على عتبة رسالة أُخرى، يُذكّرني قوله بما لا أنساه، غُربتي بدونك، منفيّة أنا عن كلّ شيء أَلِفته في وجودك، لينزع قُبح غيابك عن حياتي كلّ جميل، يتّهمون ذاكرتي بالفقد رغم أنّي أذكرك؛ غير أنّي لا أذكر شيئًا سواك. منفيّة أنا عن وطني، تائهة بلا عنوان، وكلّ براح الدّنيا كأنّه صندوق يُطبق على روحي وقلبي وله قُضبان، في سجن الوحدة أنقش رسائلي إليك على الجُدران وأعلن أنّني لا أنتمي إلى أي مكان، فكلّ الأماكن بدونك غُربة، وكلّها إذا ما احتوتك أوطان!

كيف يحدث أن نتقبّل ذلك الذي عشْنا نرفضه لسنواتٍ طويلةٍ مضت من أعمارنا؟

كنتُ أرى الزواج أسرًا محْكمًا، محنّكٌ ذلك الذي فرّ منه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولا أزعم بذلك أنّي كنت صائبة في وجهة نظري، إلّا أنني كرهت ما مررتُ به، وخشيت تكرارَ المآسي التي رأيتها مرارًا وتكرارًا فيمن حولي،

وتواترت أخبارها في الأقارب والأصحاب.

كُنت أكره أن يتقدّم لخطبتي هذا الذي يُجمع الناس على كونه مُناسبًا لي، فأكونُ بين أمريْن أحلاهما مُرّ؛ أن أواجههم برفضي غير المبرر لهم وأتحمّل الصّراع معهم في معركة قدرٍ تطول أو تقصر، وبين أن أمدّ إليهم يدي وأتقبّل أن يضعوا أصفاد الزواج بها، وأدخل حينها الأسر مقهورة بدون أملٍ في الفكاك.

حتّى أتيتني أنتَ فتغيّرت نظرتي وكل شيء، وصار الأسر غاية أهرب إليها، وليس نهاية أهرب منها، وكلّ لمزات الناس لي وغمزاتهم بأن أقبل الآنَ ما عشت العمر أرفضه؛ لم تعد تعنيني، لا يعنيني إلّا رجاء السكن خلف قضبان أسرك؛ التي حرّرتني من ظلمة نفسي، ومن يأسي، صار يعنيني أن أسكن إلى جوارك خلف جدران هي أوسع من مدى العمر بالنسبة لي.

وما العجبُ فيما ذكرت؟ ما ذلك إلّا الفارق بين أن تُحب، وألّا تُحب.

إنّما العجب بحق أن أبقى هادئة مطمئنة أسيرة لك، وأنت لست معي.

أرفضُ الخروج من مكانٍ جمعنا، رغم أن بابه مفتوح على مصراعيه.. أسيرتُك أنا بكامل رغبتي وإرادتي، وأعوذ بالله أن أتحرّر منك.

***

رسالة (٣٨)

الثامن والعشرون من شهر ديسمبر. عام الجائِحة

أرضُ الأحلام

عزيزي العنيد البعيد،

على أرض أحلامي بنيتك بيتًا، على الهيئة التي أُحب، والتي تُحب،

وقلت لعلّ الهوى يصير بحرًا يلتقي موجه بشاطئ روحك عند هذا البيت..

وأغرس شجرًا أخضر أمام نوافذي يؤنسني في وحدتي المثالية،

وحدة مليئة بك أنت.

في لوحة الخيال نرسم ما نشاء كيفما نشاء

ويذهب كلّ واحد بمخيلته إلى حيث ألقته فرشاة الأماني

فترسم الأشياء وتلوّن الأشياء، ترسم أرضًا أو سماء

إذا أردته ليلًا ألقيت بسوادي، وإذا أردته نهارًا نشرت الضياء

أمكثُ هناك أُحدِّث نفسي عنك، أو أرسم حديثًا معك

بأحرفه وكلماته، بصمته ونطقه ووقفاته!

صورة مُثْلَى لشيءٍ في أفق الوجدان، يودّ لو نزع ثوب خيالاته ومَزَّق قيد الرسم، وكشف عن واقعٍ.. أشبه ما يكون بذاك الحُلم!

لو أنّنا نملك حدود الخيال فينا، فنُسافر فيه حتى أبعد حدّ.

لو أنّنا نملك بالخيال أن نصل لمن نُحب، فنستحضر ملامحهم التي طال غيابها وأصحابها عنّا، فنراهم على البُعد، نتحسس تفاصيل وجوههم بأنامل الروح كما أردنا كي نتأكد أنّ ما نراه حقٌّ، وفي ذات الوقت نعلم أن جوارحنا هنا معنا لم تتلبّس بهذا صدقًا!

لو أننا...

***

رسالة (٣٩)

الثلاثون من شهر ديسمبر. عام الجائحة

وجعٌ أنيق

عزيزي الوحيد،

أنجذبُ إلى الوجع الأنيق، الألمُ الصامت المُحاط بهالة من السّخرية.

تُعجبني غرابتك التي تُشبه إلى حدّ كبير غرابتي.

أنجذبُ إليك وأخرق بذلك قوانين الفيزياء جميعها، إذ أنهم زعموا أن المُتشابهين لا بُدّ وأن يتنافرا!

تمنّيت لو أنني تشابهت معك في كلّ شيء، فلا أُشبهك في كلّ ما تُحب ثمّ أختلفُ عنك في الفراق، تمنّيت لو أننا تشابهنا في البُعد مثلما تشابهنا في القُرب، تشابهنا في الكره مثلما تشابهنا في الحُب، تشابهنا في الزُهد مثلما تشابهنا في الطمع.

لكنّك كنت كمرآةِ الروح التي أحببت النظر فيها، أتأمّل ذاتي التي لم أعرفها قبلك، وظللت أرقب انعكاس نفسي فيها حتى صدقتها، ونَعَتَتَني بالجنون عندما اختلفت عنّي، وأصابتها لعنة الفراق مثلما أصابتنا، فمحت كلّ شيء؛ مَحَتْنا!

نحنُ نرتاح يا عزيزي إلى هؤلاء الذين يُشبهون الروح، من لا نبذل جهدًا في الحديث إليهم؛ لأننا نختصر معهم مطوّلات الكلام، فيفهمون عنّا ما لا نفهمه عن أنفسنا، وتتفق أفكارنا دون سابق معرفة، حيث تجد الكلمات سبيلًا للوصول بدون عناء.

يُعجبنا التشابه.. يفتننا.. ويُخيفنا.

قدْ يهون علينا ما نتمنّى قبل أن نلقاه

ولكنْ، كيف نحتمل أن يضيع منّا بعد أن وجدناه!

حقًّا ما أصعبَ أن تجد من يفهمك، وما أصعب أن تحتفظ به إذا وجدته!

***

رسالة (٤٠)

الحادي والثلاثون من شهر ديسمبر. عام الجائِحة

لا لوْم

***قَد نالَني مِنكَ ما حَسبي بِهِ وَكَفى**

يا مَن تَناهَيتُ في إِلطافِهِ فَجَفا

عَلَّلتَني بِالمُنى حَتّى إِذا عَلِقَت

بِالنَّفسِ لَم أُعطِ مِن أسبابِها طَرَفا*

ابن زيدون

لا تَلُم قلبَ المُحِب وحَسْبه ألَم الفِرِاق؛ أذقتَ مرارة صبرِه لِتَلومَه الأشواق؟!

كُنت كمثل غيمةٍ من الأمنيات ملأت سماءَ الروح، وكان الشوق مثل الوَدْق يخرج من خلالها، لكنّ الغيمة كانت حبلى بالوجع وحلاوتها كمثل هشاشة حلوى غزل البنات تذوب سريعًا ولا يبقى منها أثر إلّا من عصا عرجاء كانت تحملها.

قد كان وعدًا أن تمحو الحُزن الذي ضجّت الروح حبيسة في جدرانك، فأبيت إلّا أن تُهديني حُزنًا جديدًا؛ وكأن الوعد كان ألّا تُبكيني إلّا من أحزانك!

لقد تعبت...

سأجمع رسائلي جميعَها، كلّ حرف، كلّ طرف، كلّ طيف، سأُخفي الحقيقة كُلّها وأكتفي بالزيف.

سأكذب وأدّعي النسيان، فتفضح سرّي وتُخبر عنّي ارتعاشة فَقْدٍ تَفجأني في هجير الصيف!

سأمّزق ذكراك بعدد مرّات الخُذلان، ولن أُبعثر الأجزاء، حتّى إذا ما عُدت؛ لملمتها ومسحت عليها بيدِ الحنين.

ورتقت ثوبَ الهجر بخيط الوفاء، فكأنّي ما ذقت عذابًا قط!

***

رسالة (٤١)

الأوّل من شهر يناير ٢٠٢١

محْضُ خيال

أبتسم، وأقول أنّي بخير،

لست كذلك.. أنا أدّعي.

أنثر حروفًا مُستقاة من دمي.. من أدمعي...

أسير في الدَّرب وحيدة.. مُرغمة،

فأين مَن سكنوا الفؤاد وأضلعي؟

أين مَن كانوا يومًا معي؟!

أخاف تلك الحالة التي بدأت تنتابني في الآونة الأخيرة.

أشعرُ أنَّ كلّ ما أفتقدُه معك، وذكرياتي كلّها كأنّها لم تكن يومًا، وأن كلّ ما أكتبُه هو محض خيال نسجَه عقلي المعتلّ بك، وقلبي الذي مسّه الشوق إليك.

ولأنّ رسائلي إليك لا تتجاوز حدود الورقة المكتوبة عليها؛ وأن رسائلي إليك إنّما هي رسائلُ يقينًا لن تقرأها، فما المانع إذًا أن أكتشف يومًا ما أنّ كلّ ما أشتاق إليه؛ إنّما هو شوق لحدوثه، وكأنّها تفاصيل وددت لو عشتها معك خارجَ حدود العقل والخيال، تفاصيل بلغت المحال ووددت لو كانت حقيقية.

أيعني هذا أنّها لم تكن؟!

لا أدري.. ولم أعد أدري.

ترتجّ أعماقي كثيرًا بين تفاصيلي معك، ما الذي حدث منها، وما الذي تمنّيت أن يكون لكنّه لم يكن.

أذكر- أو هكذا أظنّ- يومَ تشاركنا مدارسة الفلسفة، وحذّرتني من الخوض فيها، فقلت؛ أو هكذا أتهيأ أنّك قلت:

يا صغيرتي رفقًا بعقلك، فالفلسفة جميلة، لكنّك أرق من ظنّياتها وفرضياتها.. أنتِ أبسط من احتمالاتها المعقّدة.. وجنونك الطفولي لن يستوعب هذيانها.

لقد صدقت؛ فقد ذهبت وبقيت لي الأفكار الفلسفية كالأمواج الهادرة، تعبث بذكراي معك وتُصيبني بالجنون، فأظلّ حيرى أمام ظنونها؛ تكون.. أو لا تكون!

***

رسالة (٤٢)

الخامس من يناير ٢٠٢١

عن النّسيان

***تُنسى، كأنك لم تكن**

شخصًا، ولا نصًّا. وتُنسى

تُنسى، كأنك لم تكن

خبرًا، ولا أثرًا، وتُنسى*

محمود درويش

عزيزي المُتناسي،

يقولون إنّ الفراغ يستجلب حضور الغائبين، فلم صار الانشغالُ أيضًا مُقلّدًا للفراغ، متواطئًا مع الذكرى وأصحابها؟!

يُخبرونني أنّك رحلت لأنّك تعلم أنّي أُحبّك، لكنني في حقيقة الأمر أحبّك أكثر ممّا تعلم..

ولكن، ماذا عن النسيان!

هل ننسى حقًّا الأشياء والأشخاص إذا ما أدرنا لهم الظهور، أم ننسى إذا تغافلنا.. أو كرهنا أو زهدنا أو فاضت بنا الأحزان؟!

هل النسيان حقًّا بالإمكان، إن كُنّا ننسى فكيف نذكرهم من بعد ذلك، وما الميزان؟

وهل إذا نسيناهم سترجع ذكراهم كلّ حين ونشمّ أثرها في كلّ مكان؟

وهل يتكفّل الصبرُ بهم؛ ويُزيح بقاياهم طول الزمان؟

حديثُنا عن النسيان كذبة موهمة كُبرى، ما كانت يومًا حقيقة، وما كان

الذاكرة شديدة وعنيدة، تطرح عنها ما ينفعنا بقاؤه، وتُبقي لنا الألم محفورًا على الجُدران.

أم أنّها فقط وفيّة للّحظة الأولى والدهشة الأولى والبراءة الأولى.

لو كان النسيانُ سلعة تُشترى لعبرت لأجله مفازات السراب وبحارٍ ليس لها شُطآن.

ورجعت بخفيّ حُنين دون أن تنسى.. لأنّك؛ لم ترغب يومًا (بصدقٍ) في النسيان!

***

رسالة (٤٣)

العشرون من شهر يناير ٢٠٢١

علاماتٌ استفهام

***أناسٌ أعْرَضُوا عَنَّا**

بِلا جُرْمٍ وَلا مَعْنَى

أساءُوا ظَنَّهُمْ فِيْنَا

فَهَلّا أحْسَنُوا الظَّنَّا

وَخَلَّوْنَا وَلَوْ شَاءُوا

لَكَانُوا كَالَّذِي كُنَّا*

كشاجم

هل تداخلت ذواتنا إلى تلك الدرجة التي استلزمت فجأة الفراق؟

هل تشابهنا إلى حدّ صارت روحك هي انعكاس روحي في المرآة؟

وهل اختلفنا ثم تشرّبنا الاختلاف واستوعبناه وألفناه فصار هو والتشابه عندنا سواء؟!

هل حدث كلّ هذا؟ أم أنّك أدركت أنّه لا محالة حادثٌ فاستبقْته بالرحيل؟

كُنت أظنّ أنّ هذا يكفي إلى وجودٍ أبدي، يبقى وإنْ رحلنا نحن عنه، وكأننا وصلْنا بالحُبّ إلى سرّ الخلود الذي عرفه الفراعنة وجعلوه في حنوط موتاهم.

لكنّ الأمرَ تعدّى إلى ضرورة الفراق، وكأنّه عهد على جبين السعادة المتوّهمة أن يفترق كلّ مَن اجتمعَا في رباط من محبّة حقيقية لم يدركها اثنان إلّا ونالَا نصيبهما من الفراق.. ومن الوجع!

إلى قابعٍ في رحِم الغيب يأبى الرجوعَ إلي، عصيٍّ على الفؤاد يأبى الخضوع؛ تصوّرتكَ بعين التمنّي، وصنعتُك على مزاج أحلامي، فما عدت أدري أكنت هنا حقًّا فوافقت بوجودك صورتك في مرآة الروح، أم أنّك لم تكن يومًا؛ لكنّ طيفَك زارني من وراء الحُجب ففعلَ بالقلب ما فعل؛ ولمّا يأت صاحب الطّيف بعد، ها أنذا أهذي بك وعنك وأغضّ الطرف عن أثرك وأسأل: هل كنت؟ إذًا.. أين أنت؟

****

رسالة (٤٤)

الثلاثون من يناير ٢٠٢١

حماقةٌ مكرّرة

***الانتظار.**

كلّنا يعرف الانتظار.

أنْ تنتظر ساعة، يومًا أو يومين، شهرًا أو سنة، وربّما سنوات.

تقول طالت، ولكنّك تنتظر.

كمْ يمكن أن ننتظر؟*

رضوى عاشور

أيُّ حماقة تلك التي تسوقني لتكرار ذاتِ الفعل كلّ مرة بدون ملل؟!

في كلّ مرّة أنتوي فيها تحطيمَ صنم الانتظار ورجمه بحصوات الغياب، بعدد أيّام البُعد؛ حصاة عن كلّ يومٍ أرجم بها ذاك الصنم، ثمّ أحطّمه ببركان الغضب المُشتعل في قلبي.

كلّ مرّة من مرّات الخُذلان أنتوي بصدقٍ كلّ هذا..

ثُمّ أفقدُ ببساطة ذاكرة الغضب والخُذلان، أفقد ذاكرة الأشياء جميعها إلّا التي تحْتويك، فأجدُ نفسي أقبّل الحجر بدلًا من تحطيمه، وأطوف حوله بدلًا من رجْمه، وأدعو له بدلًا من أن ألعنه!

هذا حقًّا أمرٌ يستحيل أن أفهمَه أو أعذره لنفسي، وما نفسي؟! بضعة منّي تآمرتُ معك عليّ من أول يومٍ عرفتك فيه.

ربّما كانت تلك هي المشكلة الحقيقية؛ أنّك رحلت، لكنّك لم ترحل وحيدًا، بل أخذتَ نفْسي معك، وأبقيتني وحيدة.. خاوية من نفسي ومنك ومن كلّ شيء!

أشعرُ أنّني مُمزّقة الكبرياء.. تتجاذبني قيود التعلّق الدامية ومخلب الاحتياج ناشبٌ في عنقي، الكُلّ مُتآمر والغاية واحدة.. نزعت روحي من جسدي الميت مُسبقًا في ألف رحلة ورحلة من عذابات لا تنتهي كي يحين القضاء الأخير على أشلاء قلب وكبرياء وحلم.

وصاحبُ القيود المُحكمة هو المُنقذ باعتبار ما كان والقاضي باعتبار ما هو كائن، والنافذ بالأحكام باعتبار ما سيكون، هو من دبّر الحبكة متلذذًا بها ومشفقًا أحيانًا عليها.. وهو مَن سيكتب النهاية.. تلك المعروفة بداهة منذ المشهد الأوّل للحكاية.

ما أشدّ عذابَ البين بين، وكلّ المساحات الرمادية!

تبًّا للغياب الذي ظفر بك.

وماذا عليّ أن أقول الآن؟!

أنت.. أنت الذي إذا همستَ بكلمةٍ أنطقتني: *هذا ما كنت أود أن أقوله!*

***

رسالة (٤٥)

الأول من فبراير ٢٠٢١

محضُ سراب

***يَقولونَ انْوِ أنْ تَنْسَى هَوَاهم**

وَهَلْ يَنْسَى ابْنُ آدَمَ حِينَ يَنْوي؟*

تميم البرغوثي

عزيزي القاسي،

أعرفُ أنّه صار حتمًا لازمًا عليّ أن أتوقّف عن الكتابة إليك، تلك الرسائل ينبغي أن تتمزّق، ينبغي أن توأد الأحرف في مهدها، لكنني لا أُخفيك سرًّا؛ فأنا أكتبُها لأنني أستأنس بها، يؤنسني في الوحدة أنّني أملك قلبًا أحبه، قلبًا حقيقيًّا يسكن صدرَ صاحبه، قلبك الذي ينبض عندك فيبعث فيك الحياة، ويبعث في أنا الشوق إليك.

تؤنسني الرسائلُ لكنّني أستوحش في الغياب، أستوحش لأنها رسائل أُحادية منّي إليك، وليس ثمّة رسائل منك إليّ!

لقد تعبت...

سأجمعُ رسائلي جميعها؛ كلّ حرف، كلّ طرف، كلّ طيف، سأُخفي الحقيقة كُلّها وأكتفي بالزيف..

سأكذب وأدّعي النسيان، فتفضح سرّي وتُخبر عنّي ارتعاشة فَقْدٍ تفجأني في هجير الصيف!

أكتبُ إليك كلامًا لن تقرأه، وأرسم على صفحة الغياب خطًّا لن تُبصره، لا أخالُك ستفعل، ولا أخالني راغبة في أن تفعل! بعض الرسالات (ربّما) سرّها وسحرها؛ ألّا تَصِل!

هل تعرف أنّني فكّرت أن أكتب رسائل نيابة عنك؛ أُكرِم بها رسائلي المخْذولة منك، وأرفع بها عن كاهلك خزي التخلّي وعار التجاهل وذنب خيانة العهد، ووجع الخوف الذي سكن أضلُعي بعدما وعدت.. وأخلفت.

فكّرت في هذا حقًّا، رُغم أنّه ضرب من الجنون؛ أن أُحدّثك في نفسي وأردُّ عنك، وقد أبرّر فعلتي المخبولة حينها بأنني أعرفك! وأستنطق صمتك بالكلام الذي لم تقلْه، وأتوقّع عُذرك دون أن تُبرِّ ، وأقرأ خوفك الذي أعجمته بالتهوّر، وأعي تمامًا حُزنك الذي تدفنه بالسخرية؛ فيتجلّى أمامي أكثر وأكثر!

فأنا على كلّ حالٍ أعرفُ تفاصيلك التي خبّأتها، وعشتها معك بالتخيّل والتصوّر.

ألا يكفي كلّ هذا لتمتلئ محْبرتي، وأكتب عنك رسالةً منك، وأقرأها كي يسكنَ قلبي ويستريح من عَنَت الرحيل؟

مخبولة أنا! أعرف، أفكاري يائسة، وادّعاءاتي كلّها زائفة، لأنني إن كَنت أعرفك حقّ المعرفة؛ فلماذا أجهل سبب الفراق والغياب؟!

لماذا تضجّ روحي بكلّ هذا العِتاب؟

ولماذا بعدَ المودّة تقطّعت بنا السّبُل والأسباب؟

سلكت كلّ سبيل يوصلني إليك، وقد أغلقت أنت دوني كلّ باب، فما بالي بعدَ كلّ هذا مازلت أرغبُ في الكتابة إليك وعنك، وأنتظر أي شيء منك.

الذّنب ذنبك، ولا عُذر لك.

يا مُعذِّبي ألا تخشَ عليّ من وطأة هذا العذاب؟!

إنْ كان صدقي في محبّتك يشفع لي، فأنتَ والرسائل، والوعود، جميعكم؛ محضُ سراب!

***

رسالة (٤٦)

العاشر من فبراير ٢٠٢١

يومُ الفراق

عزيزي،

نحمل أحيانًا ما لا نملكُ مفرداتٍ لوصفه، ضاقت به حدود الكلمات فآثر الصّمت، وضجّ بما فيه.. ودّ لو أسترجع الصوت!

يترنّح بين حالين ليس في أحدهما راحة، لا الكلمات تُبديه، ولا الصمت يُنجيه، ولا حيلة لنا معه ولا فيه!

تجمّدت الأوصالُ ببرودة الفقد، وطول البُعد يكاد يودي بالقلب في غيابة الزُهد.

لم أعدْ أعرف للرسائل عددًا، لم أخلف فيها عهدًا قطعته ولا وعدًا.

وهي على كلّ ما فيها مثلها كمثل الصّدى لا يخرج إلّا منّي ليعود مُحمّلًا بالخيبات إلي.

فلا أصاب سمعًا ولا قلبًا، ولم يجلب منك ردًّا.

بئسَ الرسائل تلك التي لم يتجاوزْ معناها حدود حروفها ليستجلبك إلي من غيبة ويُصيِّرُ صدَّكَ وُدّا!

مرّ زمنٌ طويل على يوم الرحيل..

كَنت أحسب أنّي ادّخرت ما يكفي من بريق تلك الأيام الخالية كي أستعين به على زمان الهجر.

يومُ الفراق حسابُه مختلف، لا يشبه أيّامنا التي اعتدناها، مديد حتّى تظنه بألفِ عام، لكنّه سرعان ما يمرّ مرور الكِرام، فكأنّك من شدّته مُغيّب في الألم لا تفيق من سكرته، وكأنّك من سرعته فزع من انفراط عمرك في غمرته.

يا ويحَ القلب يمرّر الأيّام كي يقتل الفراق، ويهاب مرورها كي لا يُجابه ما يخشاه.

***

رسالة (٤٧)

الأوّل من مايو ٢٠٢١

بلا عنوان

عزيزي البعيد، الوحيد.. العنيد..

مرّ عيدُك عليك وأنت وحدَك بدوني، ومرّ عيدي عليّ وحدي بدونك، وحدها (الوحدة) هي مَن تجمعنا، نتشابه في قدرها هي فقط، تجمعنا فيها ولا نجتمع في سواها، اخترتها أنت بملكك، وفُرِضَت عليّ، أنت متوحدٌ مع ذاتك، يسيرٌ عليك أن تلفظني خارج حياتك.

أمّا أنا فمازلتُ تحت تأثير الفزعة الأولى، فقد كنت مثل ومضة البرق السريعة الخاطفة، تلك التي يعقبها مطر شديد.. صقيع.. جليد.

لقاءٌ فغياب، ثمّ لقاء ففراق.

فراقٌ طويل، طويل جدًّا بدون أدنى أمل في عودة.

قاتل اللهُ الفراق؛ وقسوتك التي أطالت أمدَ الفراق فجعلته مخلّدًا في الغياب، لا أمل في العودة منه.

أشتاقُ إليك بحجم هذا الغياب وأكثر،

رسائلُ شوق، وكُلّ الرسائل تعود إلى مُرسِلها إذْ أنّ المُرسَل إليه.. بلا عنوان!

***

رسالة (٤٨)

العاشر من مايو ٢٠٢١

مفتاحُ الدار

إنّ هذا الوجع لا ينتهي أبدًا، تلك الدموعُ لا تجف، وحاجتي إليك لا تنتهي، وشوقي يزيد.. يزيد، إلى البعيد بلا حدود.

***والعمل، إيه العمل**

ما تقولّي أعمل إيه

والأمل.. أنت الأمل

تحرمني منّك ليه؟*

مُذ عرفتك، ومُذ رحلت عنّي وأنا أدعو الله أن يأتي بك إليّ، أو ينزعك من قلبي كأنّك لم تكن فيه يومًا.

فلا أنتَ أتيت كما تمنّيت، ولا نُزِعت من قلبي كما رجوت.

لماذا رحلتَ عنّي ولم ترحل منّي؟ بل أرسيت قواعدك في قلبي بأنانيّة المُحتلّ الذي لا يرغب في الرحيل عن أرض ليست له ليسكنها بحب؛ ولا هو اعترفَ بعدم انتمائه لها فيرحل معتذرًا لها لتتحرّر منه.

أمّا أنا، فقد سلّمت لك مفتاحَ الدار في اليوم الأوّل الذي رأيتك فيه، لأنّي صاحبةُ الأرض، وقد عرفت في عينيك أنّك المُجاهد ولست المحتلّ، المجاهد الذي أعيته المعارك وكاد ييأس من طول الهزائم فتلبّس ثوب الجاني كي يخدعني، ليبرّر الاحتلال، ونسيَ أنّ صاحب الدار يعرف في العيون الفارق بين المُجاهد المُتعَب، والمُحتلّ الغاصب.

يا عزيزي، الوضوح فضيلة..

مُدّ إليّ يدك الزاهدة، وانظرْ إليّ بعينيك الشاردة، ودع عنك أذى السنوات الفائتة.. الباردة.

وابقَ عندي، حيث تنتمي، بربِّك لا ترحل عنّي! بدونك أنا مُبعَدَة، لا أرض.. لا وطن، ولا يُسمَع لصوتي صدى!

***

رسالة (٤٩)

العاشر من مايو ٢٠٢١

الوضوحُ فضيلة

عزيزي الغامض، الوضوح فضيلة..

للغموض سحر، ظاهره سرّ، وباطنه شرّ، لكنّ الوضوح فضيلة، والفضيلة خير، والخير لا يؤدّي إلّا لخير.

ماذا لو تبتَ عن ذنب غموضك، أو قدّمت بين يديَّ الآن فضيلة الوضوح،

فجئتني واضحًا من البداية، واضحًا حين أقبلت، وأشدّ وضوحًا إذا رحلت، ماذا لو فعلت؟ ماذا لو كنت؟!

ماذا لو هوّنت عليّ صُداعَ الأسئلة المُزدحمة في قلبي وعقلي، ومازالت وجعًا يئنّ بها جسدي، ودموعًا تذرفها عيني.

ما ضرّك لو اخترتَ الفضيلة وجانبت الإثم الذي أُكفِّر أنا عنه بدون ذنب.. بدون أدنى ذنب!

إلّا ذنبًا واحدًا؛ ذنب اتّباعي لبريق السحر؛ سحر غموضك.

ربّاه.. شريكتك أنا في الإثم إذًا؟!

غفرَ اللهُ لي ولك إثمَ الغموض، وسوءَ البين بين.

تائبة أنا أوّابة، أبوء إلى الله بذنبي عساه يغفر لي.. ولك.

عازمة على ألّا أعود إلى بريقٍ زائفٍ..

أقفُ هنا وحدي في صحراء شاسعة، فوق رأسي شمس ساطعة، تُظهِر كلّ شيء.

باطني كظاهري، كلاهما سواء، ترى أحدهما من الآخر.. لا ظلّ لي.

أتكشّف برسائلي أمامك، وأتحلّى بفضيلة الوضوح، وأحتمل لهيب الشمس كفّارة لذنبي،

وأدعو الله؛ فقلوبُ التائبين وَجِلَة، ودعاؤهم مُستجاب.

أدعوه أن يهديك طريقَ الحق، وتتجلّى أمامي بذاتِ الوضوح، وتكشف لي ما غابَ عنّي منك، ونجتمع تحت ظِلَّةِ الفضيلة، والفضيلة كما أخبرتك خير.

والخيرُ يا عزيزي لن يؤدِّي بنا إلّا لخير.

***

رسالة (٥٠)

بلا تاريخ...

قوسٌ مفتوح

إنْ غابوا عن العين فإنّ الروح تُبصرهم

وإنْ لاذوا ببابِ الصمت فذكرانا تُحاورهم...

تُسائلهم.. تُعاتبهم.. تُطمئنهم

بأنّ البُعد لا يقدر أن يمحو رسائلهم.

عزيزي،

عجيبٌ أنَّ رسائلي إليك من أصدق ما كتبت يومًا، والمقروء منها أقل بكثير من المخبوء في صدري.. ولا أظنّه بخارجٍ إلّا أمامك، أو مقبور كما هو بين الضلوع ليس له من بَعْث.

إنّ طريق الشوق إليك أقطعه بروحٍ أنهكها الأنين، ويردّني إليه وإليك رسائل الحنين، فأنا أُصِلُك عندما أكتب إليكَ، وتقطعني عندما لا تقرأ!

عندما أخبرتني كلّ شيءٍ عنك في أوّل لقاء، فكأنّك كُنت تدفعني بذلك إلى أنْ أجعله لقاءنا الأخير، لذا آثرت الصمت على أمل أن يعقب لقاءنا لقاءات كثيرة؛ لأنّي خشيت الفراق، بينما أنت تحدّثت طويلًا على أمل أن يكون لقاؤنا الأوّل هو آخرَ لقاء.. أحببت وجودك، وأحببت أنت فراقي.

لقدْ عرفت غيابك أكثرَ من معرفتي بوجودك، وعرفت رحيلك أكثر من معرفتي بحلو مجيئك.

عرفتُ طعم الأسى جيّدًا، بينما لم يتَسنّ لي معرفة كيف هو الحُبّ بيننا!!

أعرفُ عنك أكثر بكثير من هذا الذي تظنني أعرفه، وأنت لا تعرف عنّي أيّ شيءٍ من هذا الذي وددت أن تعرفه.

صورتك في خيالي كاملة الأوصاف، بينما صورتي عندك باهتة بلا ملامح.

وبالرغم من كلّ هذا؛ فقد أرسلت الروح في أثرك تتبع خُطاك، تتفقّدك، فإذا ما أحسستها يومًا فاعلم يقينًا أنّها إحدى الرسالات التي أردت لها أن تصِل!

مُخيفة حقًّا صولاتُ القلب وجولاته، آماله وتطلعاته، ذاك الغيب المؤمّل والذي نرقب على وجل خلجاته وسكناته، فلعلّ بعد صبرٍ طويل على خيباته يأتينا الغد القريب بتحقيقٍ لأمنياته.

إنّ ما بيني وبينك أمرٌ كائنٌ في نفسي الواسعة بك، الضيّقة بدونك، وهو كمثل صفحة باقية خالدة، بين دفّتين؛ إحداهما مطوية والأُخرى منسيّة، أو مثل حكاية مكتوبة بين قوسين، أُغلِق القوس الأوّل عمّا قبلها ليحتويها، وبقي القوس الثاني مفتوحًا مُعلنًا أنّها قصّة العُمر كلّه؛ الأبدية بلا انتهاء.

وإنّ أجمل لحظات مرّت عليك في عمرك، هي تلك اللحظات التي تمنّيت أن يقف العمر عندها، ولا يمرّ!

دُمت بخيرٍ يا عُمري الذي أرجو أن يمتدّ ويطول فقط كي يحتويك وذكراك في أيّامه، فلقدْ ختمت على قلبي بمسك محبّتك وفطمته عن حبِّ كلّ بشريٍّ سواك، ليظل مُغلقًا عليك.. مُتيَّمًا بِك؛ يفوح منه عبق ذكراك.

ولأنّك ملتحفٌ بسُتُر الغيب التي حالت بينك وبيني، فقد أعددت لقدومك

الحتميِّ حُسن الظنّ بالله واليقين!

***

---

2 نيسان: اسم سرياني أُطلق على الشهر الرابع بعد آذار، ومن معانيه: الربيع، الزهر.

الفصلُ الثّاني من الحكاية
صندوقُ الذّكريات

الحقيقةُ أنّنا جميعًا ننتظر، ننتظر رغم ضآلة الاحتمالات، ننتظر حدوث شيء استثنائي يقلب حياتنا

خالد الحسيني

****

(أ)

ينبغي أن تتوجّس مِن هذا الذي قدّر بيُسر لم يكن لغيره أن يجعل نفسك أمامه على فطرتها، وبراءتها، وأعادها بخفة سيرتها الأولى، وانساب بوحك معه بدون أدنى تكلّف منه ولا منك، ذلك الذي علِم عنك ما عشت الدهر تُخفيه متعمّدًا، أو بغير قصد، فقطع من روحك مسافات لم يبلغها أحد سواه. ذلك القريب روحًا البعيد وجودًا، البعيد حُلمًا القريب أملًا.

هو الذي ترجو لو علمَ عنك ما هو أكثر، والذي تتمنى لو لم يعرف عنك شيئًا ممّا عرِف، ليظلّ في بقعة الحُلم المستحيل بالنسبة لك وتبقى في مساحة المجهول بالنسبة له!

في كلّ مرّة يكون الوعد بالصمت يعود عهد الرسائل من جديد..
عجيبة رسائل الصمت تلك، تُكتب رغمًا عنّي وعنك، بمداد قلم يحنّ إليك، في الفقد وُلِدت وبالبعد عُرِفَت وبالوجد كُتِبَت، لن يفقهها غيرك؛ ولَن تصل إليك.

(ب)

وكتبت يومًا في لحظة حنين مُطرّزة بالكبرياء:

كانت رسائلي آيات اشتياق، وكانت تعود مع كلّ فجر للأمل.. ثمّ تعتنق الغياب مع ناقوس الفراق..

لا تسلْ أين الرسائل.. هي خاوية، رحلَ الحنين وبقيت هي، لا تنشغل هي راضية، ومدادُها أغلى من عطاياكم، هانت وهُنّا، نسيتم وإنّا قد نسيناكم !
تلك الكلمات السابقة.. المارقة من غيظ الفقد؛ كلّ وعد بالنسيان فيها كاذب مهما بدت لك صادقة !

إنّ حاجتنا لمَن نُحب؛ لأنفاسهم، لدعمهم، لصبرهم، لحرارة تنبعث من أكفّهم وأحضانهم؛ هي حاجتنا للحياة ذاتها.. وغياب ذلك هو موت لا حياة فيه.

قاتلَ اللهُ الغياب، والقسوة، والجحود!

بعدَ أن أزَحت رسائل الفلسفة جانبًا، مسحت دموع العين منها، على أمل أن أكتبَ الرسائل التي كلّفتني بها الطبيبة، فأبتْ نفسي عليّ ووجدتني أعبث في

صندوق الذكريات...

قصاصاتي القديمة.. سطرها وكلامها، وأوراق الورد التي ذبلت وبقي عطرها، والحكايات التي اندرست وذهبَ أثرها، عادت بعد أن رحلت، تجدد قدومها ومن قبْل قد وصلت، بعض الرسالات تظلّ تصل ليتجدد كلّ حين ذِكرها.

وجدتُ رسالاتٍ كتبتها إليه، إلى هذا الذي جاءني في مفترق الطرق، فما كان قبله كان مختلفًا تمامَ الاختلاف عمّا جاء بعده.

(ج)

عنْ تلك الأيام

عنْ تلك الكلمات التي

تبدؤها فأُنهيها

وتلك الحكايات التي

تكتُمُها فأحكِيها

وبَعضِ الإشاراتِ التي

تُعلِنُها فأُخفيها

عن نِصفِنا المَنسيّ

وأمرِنا المَقضِيّ

وأشباحِ ابتساماتٍ

تضْحَكُها فأبكيها!

*** * ***

عنْ تِلكَ الرسالاتِ التي

تَكتُبُها، تُغنيها

وتلكَ الخَيالاتِ التي

أرسُمُها فَتمحيها

وَكُلّ أيامَنَا التي

تُصبِحُها فأُمسِيها

عَن حِلمِنا المفقود...

وُحبّنا الموءود

وذِكرانَا التي

تُميتُها فَأُحييها

*** * ***

عَن تِلكَ الفراشاتِ التي

.

تُرسِلَها فأدنيها
وَتِلكَ الحماماتِ التي
أبعَثُها فَتُقصيها
وَبؤسِ الغَيَابَاتِ التي
ارْتضينا المُكثَ فيها
عن وقتِنا الضَائِع...
وَجُرْحِنا اللّاذِع...
وتِلكَ الذكرى التي
تَصرِفُها فَأُبقيها
عَن تِلكَ الساعاتِ التي
تَبيعُ وتشتري فيها
وتِلكَ اللحظاتِ التي
اشتقتها وتَشكيها
وتِلكَ المسافاتِ التي
تَحبوها وأجريها
عَن تِلكُمُ الأيام...
وتِلكُمُ الأحلام...
وتِلكُمُ البدايات التي
تَبترها وتُنهيها!
***

رسالة (١)

بعث

فلمّا غضّ الطرف عرف أنّ روحه هي التي تعلقت

رضوى عاشور

في حيرةٍ أنا بين ذِكراكَ ودَمعاتي...
أراهم يمدحون وَقع كلماتي....
عجبًا !
بِرَبّك كيف أُبعث كاتبةً في غيابك؟
إنّما وُلدتُ على فراشِ فقدك

إنّما خَرجت من رَحِم حُبك
منك استقيت الكَلِمات
وإليكَ أبُثّها.....

***

رسالة (٢)
مُصابةٌ بك

مصابةٌ بك حتّى العظم.. هكذا قالت بطلة إحدى الروايات للبطل الذي أحبّته.

ولكن.. أيُصاب أحدهم بأحدهم حتّى العظم؟!

أيعني هذا أن يتجاوز الحُبّ شغاف القلب؟

أيعني هذا أن يصير الحبيب دمًا يسري في العروق؟

وأن يشتدّ الأمر فنصاب بهم حتى العظم!

وماذا بعد هذا؟

لا شيء.. أعلم هذا

فأنا مُصابةٌ بك حتّى العظم.

***

رسالة (٣)
أدورِ

مازلتُ أدورُ وأدورُ في فلكك، بالله عليك أَشْرِق بِشمسِك، أو أخرجني من مَدارك!

تلك الكلمات التي أكتبها والتي لا تجاري كلمات المبدعين في القصص والروايات وغيرها، إن قرأتها يومًا- وأشك في هذا- ستضحك ساخرًا: *مازال بينك وبين الإبداع مسافات طويلة يا صغيرتي وضحيتي*.

وأنا سأجيبك بغرور حبّك في قلبي وانكسار وتواضع فقدي لك: *لا تنس يا عزيزي أنّ تلك الكلمات على ضعف مستواها وضحالة معناها هي لك أنت، تقرؤها وأنت تعلم أنّها نشأت في محراب حبك ونُسجت على أوتار عشقك، كلمات خرجت من أجلك أنت، أنت قارئها الوحيدُ إن قرأتها، وأنت مُبدعها على لساني وكاتبها عبر أنامل يدي*.

كلّ كلمات الحبّ في الروايات لها أصحابها الحقيقيون والوهميون، ومهما نَافَستني تلك الكلمات في بلاغتها ورؤْعتها ستظل كلماتي تنافسهم في ميدانك، فهي وحدها التي لك، وحسبُك من كلماتي أن تعلم أنها وليدتك، لتغلقَ بعدها كلّ القصص وتعيش فقط بين جنباتها وتتعلم معنًى جديدًا للإبداع لم تكن تعلم عنه شيئًا.

إنْ حدث قدرًا وقرأت كلماتي، وكم أخشى من يومٍ كهذا، فأرجو أن تعد فنجانًا كبيرًا من القهوة، وتأتي بما استطعت من الشيكولاتة التي تُحبّ وتغلق هواتفك عن كلّ الناس، وتطفئ الأنوار وتركّز عينيك على الكلمات وتقرأها في تؤدة وتأنّ، لا تستعجل النهايات، النهاية سبقت كلّ شيء، اقرأ بهدوء كلّ كلمة وعِشْها بالإحساس الذي كُتبت به دون إخراج طيب، كلمات خرجت بوقتها على فترات، لو نظرت في التواريخ لعلمت ذلك دون إشارتي، المهم اقرأها ولا تتصفّح سريعًا، أقلّ ما تستحقه تلك الكَلِمات أن تُحسن قراءتها، يا عزيزي.

***

رسالة (٤)
قلبٌ مكلوم

هَلْ في وُسعي أن أختارَ أحلامي لئلّا أحلمَ بما لا يتحقق؟!

محمود درويش

أيُّها الغائب،

لعلّك أغلقته؛ بابي الأخير إليك.

مضى عامٌ لا يعنيني منه سوى أنّي فيه عرفتك، وأتى عامٌ جديد لست فيه ولا أجد سوى أثرك.

أَأغلقت عنّي كلّ باب هكذا !

أوصدت أذنيك فما عدتَ تسمعني، وأغمضت عينيك حتى لا تراني، وقبضتَ على قلبي حتى لا يخفق باسمك.

اطمئنّ ما عاد يخفق، تجمّد في مكانه وطاله الصمت الذي كبّلته به، وكلماتي تلك هاربة من أَسْره هروبًا أخيرًا تعرف أنْ لا فائدة منه فأبوابك موصدة.

مازال هاتفي يئنّ يرجوني أن أهدهده برقمك، يشتاق أن يظهر على شاشته اسمُك.. وأخبرته مرارًا أنْ لا حيلة لي فالأمرُ أمرك، والنهي نهيك!

موجوعةٌ أنا، لكنّ المودة لا تُباع وتُشترى، ما ينفعني رجائي إن زهدتني، وأبدلتني بكلّ الورى!

هبّات نفسي زادت عن حدّها.. تبًّا لهبّاتي ونفسي تبًّا لها.

أمَا عاد لصوتي عندك من صدى، أمَا عدت أراك ولو سرابًا في المدى.

يا نَوح قلبي المكلوم بفقدك يا رفيقي، ألا يكفيك أن تلك الكلمات ولدت على عتبتك ترجوك، وتناجيك؟

كلمات كتبتْ لأجلك، لا تفكير فيها ولا تحضير لها، ولدت على يديك أيهون عليك وأدها!

إنِ اخترت موتها فحسبي حياتك في مقابل موتها، تبًّا لِصَاحِبتها، وتبًّا لها.. تبًّا لهَا.. تبًّا لها!

***

رسالة (٥)

جنون

أشعرُ بجرحٍ شديد لا يندمل؛ سببُه انغراس سيفك في قلبي، هذا مفهوم، لكن لماذا أشعرُ بالشفقة عليك، أيشفق المقتول على قاتله؟!

لماذا أشعر أنّك بحاجة إليّ بقدر حاجتي إليك، لماذا أشعر أني أريد أن أربّت الآن على كتفيك وكأنّك أنت المكلوم المجروح، هذه مشاعري أنا فكيف أشعر بها عندك؟

لا أظنّ أنّ حبي بلغ ذلك المبلَغَ من الجنون أنه يراك في حال أسوأ من حالي، هذا حتمًا جنونٌ أصابني حتى لا أصدق أنك احترفت الأحزان منذ زمن، ولم يعدْ يعنيك كثيرًا ألمي أو حزني أو فراقي، ليتني أخترق الحجب لأكونَ عندك وأرى كيف هو حالك، ولا أدري ما العزاء في ذلك، لا أدري ما فائدة أنّك تتألم مثلي! *فرضًا* لو كان الأمر منتهاه أن يبكي كلّ واحد منّا وحيدًا، وقد حُرمنا أن تختلطَ دموعنا في احتواء يبدأ ولا ينتهي، يتوقف عنده الزمن ويصير الدمع حينها أعذب ما يكون.

ألم أقلْ لك لقد أصابني الجنون!

***

رسالة (٦)

في الحافلة

في حافلة الرحلة، أجلس بجوارِ النافذة، وحيدة بين جمعٍ من البشر، وِجهتنا واحدة وقلوبنا شتى.

يَجمَعُنا حيّز واحد، ولكلّ واحدٍ منّا مداراته وعوالمه بعيدًا عن الآخر، لولا المادةُ التي تَربِطُنا رغمًا وَقَسرًا وَقَهرًا لحرياتنا؛ فَتَمنعنا عن التحليق الكامل. الأجواء الخارجية تُعين على هذا المنظر الخيالي، ضباب شديد يُخفي عنك الحقيقة وصورة الأشياء، تَختفي التفاصيل ليتمكن كلّ واحد من رسم لوحته الخاصة بضربات فرشاة من روحة ويُلونها بحديث قلبه فتخرج أشبه بذالك العالم الذي يُحلق فيه وحده بعيدًا عن الآخرين.

تَواطَأ معي كلّ شيء، فَكل المقاعد مشغولة بأصحابِها عدا المقعد الذي بجواري، قدرًا هو المقعد الوحيد الخاوي؛ دون سبب ظاهر لهذا!

وكأنّ الكلّ يَعلم أنّ هذا المكان لهُ صاحبه، ذاك الحاضر الغائب، وكأنهم يعرفون بدون حِكايةٍ منّي أنّ هَذا المكان لك! وَلَن يكون لِغيرك بأي حال من الأحوال.

لَو تعلم كَم تمنّيت وجودك معي.. بجواري، تُشاركني تَفاصيل رحلتي، تفاصيل حياتي، وتفاصيل كلّ شيء....

أوَتَدري ما الأعجب من تلك الأمنية؟!

أنّي طوال الرحلة أنتظر أن تُبدّد ضباب لوحتي ببريق لونك، وأن تُغيّب غيمتي بشروق شمسك.

كُنت أنتظرك...

***

رسالة (٧)

هداياك

***إذا ما فرحنا.. نخاف النهاية..**

إذا ما انتهينا.. نخاف البداية

وما عدت أدرك أصل الحكاية

لأنّ الحقيقة شيء ثقيل*.

فاروق جويدة

أهديتَني عِطرًا..

أهديتَني كُتُبًا وَقَلَمًا...

أهديتني.. شوكولاتة !

أيّ فِقه للمُحبين كَان لَديكَ! مَن علّمَك أن تُغازِلَ أُنوثتي فَتُهديني عِطْرًا، وَيَزيدُ الحُبّ فَتكون هَديتك قارورةَ عِطرٍ هي لك كُنت تَتَعطرُ بِها فَأهدَيتَني إيّاها !

وكَيف اهتديت أن تُخاطبَ عقلي فَتُهديني كَتُبًا، ما بين كتابٍ قرأته، مكتوبٌ عليه اسمُك، وفي حواشِيه أثَرُ قَلَمِك، وكتابًا جَديدًا بَرَقَت عَيناكَ فَرَحًا يوم اشتريته، فأشركتني فرحتك وَأهدَيتني نُسخةً أخرى منه، وَقَلَمًا يُشبِه قَلَمك أعطيتنيه لِتَقطُرُ ذِكراكَ مع كلّ حرفٍ أكتُبُه!

ولم يَفتْكَ أن تُمازِحَ طُفولتي وَبَرائتي فَلَم تَلقاني يَومًا إلّا وَأنتَ تُخَبّئُ بَينَ طَيّاتِ كَفّكَ الشوكولاته التي أحب !

وَدَدْتُ لو أمسكت بتلابيبِ الوقت حتى نظَل سويًّا بدون افتراق.

عطرُكَ لا يُفارِقني وأضمّ قارورته الصغيرة وكتاب عليه اسمك الغالي وأعي تمامًا قولَ الرافعي: *يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب.. ما هذه القوة السّحرية فيك تجتذب بها الصّدر ليضمّك وتستهوي بها الفم ليقبلك وتستدعي الدمعَ لينفر لك وتهتاج الحنين لينبعث فيك، أكلّ ذلك لأنك أثر الحبيب أم لأنّ القلب يفرغ ساعة من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك*.

بالله... كَيفَ تَرحلُ بَعدَ هذا؟

لا بأس.. هَداياكَ باقيةٌ معي.

***

رسالة (٨)

دماء ودموع

يا لائمًا صمتي إنّ الصمت يسكنني، ولقد وجدت في صُحبته الشفاء..

فإنّ حديث الناس أمرضني وأوجعني، وحديث الأحبة بلا حرفٍ دواء.

رسالة اليوم؛ ليست كسابقاتها من الرسائل

تشابههم في الحزن لكن، ليست مثلهم

هي شَكواي أبُثّها إليك، بين يَدَيك

تَرويحٌ لنفسي

مِن قلبٍ يَضِجّ حُزنًا

أشكو فيها مِنك.. وأشكو إليك

قاتل اللهُ المسافات، ولعن الله الفراق! وتبًّا للبُعد الذي لم أعِ حتّى الآن لم كان، ولمَ مازال جاثمًا على صدر حكايتنا!

إنْ لم تبلغك رسالاتي، ألم تبلغك سحاباتُ الظّلم التي غطّت رؤوس العباد؟

هلّا عُدت كي تُشاركني نحيبي عليهم ودُعائي على ظالميهم.. هلّا رجعت كي

تبكي معي!
لَعلّك تَعلمُ مَا يَحدثُ كلّ يوم
مِن سفحٍ للدماء الزاكيات
لا.. ليس كدمي الذي سَفحته على عَتَبة بابِكِ يوم فَارَقتني
بَل دماءٌ حقيقية
سُفِحَت غَدرًا
أحزنُ حتى تَتَمزّق نِياطُ القَلبِ من البُكاءِ.. ظُلمًا
وكُلّما بَكيت ذَكرتُ حالي مَعك فزدتُ بكاءً وزدتُ ألمًا وَزِدتُ فَقْدًا
يا وَيلي مِن الأحزان
تأبى أن تأتي وَحيدة
بَل تَجرُّ مَعَها كلّ حزنٍ سَبَقها
وَيتوّجُ الدمعُ مَلِكًا على عرشِ الألم وَشعبٍ من الأحزان
وَيَبقى الألم، يَصحَبُه السؤال
لماذا لَستَ هنا؟
أنوءُ بالحِمْلِ وَحدي
لا أجِدُك لِتَربّتُ بالكلِمات على كَتِفي
وتَهمِس في أذني أن: *لا تَحزني*
كُلُّ دمٍ سال سَينتقم الله له
وَتُشيرُ إلى قلبي أن *اصبري*
إنّما النصرُ صبر ساعة.. حبيبتي
يَعظُمُ فَقْدُكَ كُلّما احتجت إليك
وأصير أبكي على وطني.. وشَبابِه
المقتول قَهرًا، المغدورُ حِلمًا
لكنّني.. أنزفُ وحدي ألَمًا.
ضَعِيفةٌ أنا بدونك
ليتك هنا.. نَبكيهم معًا

وَنُكفكف الدّمعَ بِدعاءٍ على الظالمين

نَحزنُ معًا، نَبكي معًا... نَصبرُ معًا

في وحدتي ما عُدتُ أصبر

ليتنا كُنّا معًا!

لا عُذر لك عندي في الغياب إلّا أن تكون مُرابطًا في ساحة الأقصى، أو مُتّ شهيدًا دونه!

***

رسالة (٩)
لونُ الفقد

***لكم سرائـر فـي قلبـي مخبـأةٌ**

لا الكتب تنفعني فيها ولا الرّسـلُ

رسائلُ الشوق عندي لو بعثت بها

إليكم لم تسعْها الطـرق والسّبـلُ*

البهاء زهير

صباحُك سُكر، حلو المذاق، كما كُنت تُمازح طفلة الجيران الصغيرة فتقول لها يا حُلوة المذاق يا صغيرة، صباحك أبيض بلون سعادة أرجوها لك..

أمّا أنا، فصباحي أسود حزين بلون القهر لون الفقد لون الحزن، صباحي لا صباحَ له ولا مساء يسبقه، إنّه الإجبار على فعل أشياء لم أعد أريد أن أفعلها.. مجبرةٌ أنا على فعلها.

صباحٌ لست فيه بصوتك بكلماتك أو حتى بحُلُمي أن ألقاك يومًا، هذا ليس صباحًا أبدًا.

أتدري يا عزيزي، لم أعدْ أدري أنا ما معنى الصباح.. وما معنى يوم جديد، ما الجديدُ سوى يوم يقرّبني لموت محتوم أتعجله، ويبعدني عن ذكرى أمسٍ رائع نمتُ فيه على وعْدك وعلى مرآتي التي صالحت فيها صورتي بعد خصامٍ طويل.

فاستيقظت لأجد صباحًا بدونك، ومرآة شاحبة في حدادٍ عليك تعكس صورة الألوان تُحيلها إلى أسودٍ، و... أسود.

***

رسالة (١٠)

إلى ويلسون

صديقي العزيز،

الآنَ يا صديقي أحتاجُك قليلًا، بل كثيرًا، لا أدري ألا يكفيني افتقاد الحبيب لأتقلّب بين ألوان العذاب فأفتقدك الآن صديقًا رفيقًا ناصحًا أمينًا؟ المهم أنا في حاجةٍ ماسّة لطبيبةٍ نفسية، طبعًا ليس لأنّني مجنونة، فأنا أعرف ذلك ولا أبحثُ عن علاج، أنا أحتاج لطبيبة نفسية تساعدني على إيجاد مهدئات ومسكّنات لنفسي المضطربة، لا أريد أن آخذ مهدئات عشوائيًّا، ولا بأس ببعضِ مضادّات الاكتئاب، حبّذا لو شيء من حبوب الهلوسة لتجعلني أضحكُ رغمًا عني فقد ضجّ قلبي واشتكت عيني من الدموع والبكاء.

ما رأيُك أن أزور تلك الطبيبة التي أخبرتني عنها يومًا؟

سأعتبرُ أنّك أجبتني بنعم، فأنا أعلمُ يقينًا أنك- ورغم كلّ شيء- تخاف عليّ بشكل أو بآخر، وأظنّ أنه يعنيك أن أكون بخير ولو ظاهريًّا، فلا الطبيبة ولا أيّ أحد يملك إصلاح أطلالي الداخلية وآثارِ العدوان عليها، فقط أنت، وأنت هناك بين أطلالك وصندوقك الأسود الذي زادَ قصة فوق القصص، إن سمحت لنفسي أن أنول شرف انضمامي لسلسلة قصصك.

عذرًا أنّي أعاملك معاملة (توم هانكس) لصديقه (ويلسون) في الفيلم *Cast Away*، أنت يا عزيزي الغالي وصديقي الصدوق تقمصت الدور وقتما كُنت تدفعني غيرَ مرغمة أن أحكي لك كلّ شيء عني، وتُخبرني بلطفٍ أنّك مثل (ويلسون) كرة مطاطية وصديق وهمي افتراضي.

كم أفتقدك (ويلسون)، كم أحتاج إليك.

إذًا.. ما الجنون قفز خارج أسوار العقل؛ وأرسل رسالات لطالما كان دثارها الرّزانة، دعْ عنك حماقات الرسالات منزوعة التعقّل واقبلها بما فيها، المحبة أحيانًا نوع من الجنون إذا فاضت، هَدَرَت جميع معانيها!

***

رسالة (١١)

صداعٌ لئيم

ما لي أحسّ إذا ذكرتك أنني

لم أدرِ يومًا ما هو النسيان

تالله أذكر يوم إذ فارقتني

كوليد أمسٍ لم يَجُزه زمان

صمتٌ آخر يؤذن بكتابة رسالة أخرى، أفكّر أن أكتبِ لك على أي حال، رأسي

يؤلمني بصداع كلمات تخصّك محشورة فيه. ويبدو أن المسكن الوحيد الصالح للحال هو إخراج بعض مما يضجّ به رأسي؛ علّني أحصل على راحة مؤقتة من صُداعي بك.

ذكرتُ يومًا أنّ لكلّ امرأة شخصية تميزها عن الأخرى، وأنت مُحق، لكن لا مانعَ من صفات تشترك فيها كافة النساء أو غالبهن.

كأنْ تظلّ المرأة تسأل مَن تحب كلّ يوم: *هل تحبني حقًّا؟* أو تطلب منه كلّ يوم أن يحكي لها حكاية *لمَ أحببتني وكيف أحببتني ومتى بدأ الأمر، وكيف انتهى؟*، وتستمتع كلّ مرّة بتفاصيل الحكاية وكأنها تسمعها لأول مرّة، بل ربّما تجدها تتعجّب من بعض التفاصيل وكأنها تفاجأت بها، رغم يقينك أنّك سبق وأخبرتها بكلّ تلك التفاصيل مرّات لا حصر لها.

إذًا، هي صفةٌ أصيلة فيها لا داعٍ لنقدها أو محاولة تفسيرها، كمن يحاول أن يُفسّر لماذا يبدو الماء بتلك الشّفافية، وكيف لا لون له، وأنّى له بعذوبية مذاقه رغم أنّه لا طعم له!

كما أحبّ تفرّدي في بعض الأمور عن كثيرٍ من بنات جنسي، دعني أستمتع أحيانًا بمساحات التّشابه معهن.. دعني أسألك *هل أحببتني حقًّا؟ هل مازلت تفعل؟ هل ستظلّ فاعلًا وإن.. وإن افترقنا؟ *

لا داعٍ الآن لثوبِ الواقع الجامد القميء الذي تكرهه أنت أكثر من كرهي له، ارتدِ ثوبَك الآخر، ثوبَ البساطة والجنون والجموح، وأجب برفق، ولا ترتدِ نظارتك قائلًا في برود لا يُناسبك *ولم هذا السؤال الآن؟*

أجب.. وفقط.

وددتُ عند هذه المرحلة أنْ أُكمل الحوار عن لسانك، لكن لا مجال هنا للادّعاء ولا معنى لاستدعاء معرفة سابقة بشوائب قد تُنقص من مقدار الحقيقة، أو تجعلها مبالغة بشكلٍ يدعو للشفقة على حالي المُستجدي.

للحظةٍ ظننت أنّي قد أستمتع بحوارٍ كهذا في ظلّ غيابك عنّي، لكن المتعة أقصر ممّا تخيلت، الآن وجب أن تتدخل لتكمل، وعُدت أنا لمقاعد الانتظار في حَلْبتك، أنتظر بلهفة يائسة خروجك، انتظار قد يطول فيُفقد الأمر لذته وحلاوته والشغف به.

لئيمٌ صُداع رأسي بك، دفعني لأخذ مسكّن *حديث الطرف الواحد معك*، ليعودَ فيُهاجمني ساخرًا قائلًا: يا ساذَجة! يا مجنونة! لقد استوطنتُ رأسك، ولستُ مهاجرًا بتلك السهولة.

***

رسالة (١٢)

ليتني

لقد أَلِفْتُ هذا الآن، فأنا أستطيع أن آلفَ أيّ شيء؛ لأنني إنسان ضئيل لا وزنَ له ولا خطر. لكن، ومعَ هذا.. لماذا يجب أن أعاني هذا كله؟ أي خطأ ارتكبت؟

دوستويفسكي

لا أدري لم أكتبُ وأنت لنْ تقرأ!؟ مازلت أحبّ الكتابة إليك، أفتقدك بشدة يا وجعَ قلبي وعلّته الملازمة حتى الرحيل.

أتَذكَر أنّي كتبت اسمك وأحرفه يومًا على منديل، أتُراك رميته؟

وكتبتُه على قلبي فلا أملك الاحتفاظَ به ولا أقدر على محوه.

مازلت كلّما سرحت مُمسكة بقلم أخرَجَت خربشاتي اسمَك ورسمك.

لا أدري هل أنا مفجوعةٌ لفراقك أم لأنّني لم أكن أدري كم أحبك حتى فارقتني بهذا القدر من الوجع.

أتذكر فقط تِلكَ المنزلة التي بَلَغتَها عندي حتى صِرتُ أتَنَفّسُكَ من داخلي وأحتفظُ بك خلف قضبان صدري داخل قلبي بما لا يدع مجالًا لغيرك، كلّ شيء فيك أسمع نبضَه يعلو على نبضي أنا، اختلف النبضان فاجتمعا وأصبحَا واحدًا، لا أدري هل هو لي أم لك أم لكلينا في نغمة متناسقة، وأزعُمُ أنّي بداخلك في مكانٍ ما، علّني المتسبّبة في ألم صدرك الذي تشكوه أحيانًا، سأحاولُ المكوث بهدوء ليعتاد جسدُك على وجودي ويتوقف عن اعتباري جسمًا غريبًا عنه فيضطرّ للفْظي خارجه، سأمكث في هدوء لا يُزعجك حتى تألفَني فتنسَى أنّني هناك، ولا أنسى أنا أبدًا أنّك هنا بداخلي كملك على عرشِه متنعمًا تُحِبّه رعيته ويتمنون بقاءه وزوال كلّ شيءٍ سواه.

تلكَ المشاعر لم تعد مرتبطة بوجودك حتى تظن أنّ الاختفاء يفيد، فأنا أفتقدك حدّ الألم.. حدّ العذاب.. حدَّ المرار الذي أذقتنيه رغمًا بكأسي، حدَّ اليأس الذي غربت فيه شمسي، حدَّك يا مَن كنت غَدي فَصِرتَ أمسي.

يا ليتني نسيمًا يَهُبّ عليك الآن ولا تستطيع منعه من لِقَائكَ وَمُصَافحتك، ولا يمكنك دفعه بعيدًا عنك، فمَن يقدر على دفع النسيم!

***

رسالة (١٣)

قلبي عليك

أقتلُ ما في الحب: أن تكون ومحبُوبُكَ كشاطئين متقابلين؛ لا تلتقيان ولا تفترقان.. وهناك تعرف معنى: لا يموت فيها ولا يحيا!

علي فريد الهاشمي

ما بالُ القلب قد أصبح مُشتاقًا إليك،
ما باله؛ قدْ أضحى ملهوفًا عليك،
وأراه قد أمسى بعدَ هذا محزونًا، يا سيّدِ الكلمات رفقًا.. حنانيك
كلّما جُلت بخاطري، سكبت شكواي في أوراقي ونسجتها رسالة أُخرى إليك
أوَتكفي الكلمات؟!
وماذا عن نزيفٍ زمزميّ من الأوجاع والآهات!
سيلٌ قد تدفّق من علامات الاستفهام
المُلقاة عبثًا على أعتاب التساؤلات
وعلامات التأثر تبكي الذي فات.. وما هو آت
يا سيّد الكلمات رفقًا إن قدر الوعد بين يديك
قلبي عليك، روحي إليك، أهدني سراحًا فإنني مُتعبة!

***

رسالة (١٤)
نسيم الذّكرى

وغَلَبَة الشوق عادة ملازمة للقلب كلّما مرَّ عليه نسيم الذِكرى.

غالب الأشياء بها أثرٌ منك؛ إمّا أصيل فيها إن كانت هدية منك، وإمّا مُستجَد عليها أفرزته أيّام لم يكن فيها إلّا أنت، مثل مسُّ المِسك الأصيل لا يزول أثره من كلّ شيء عَلِق به، يزكم أنف الحنين به فلا يَشمُّ سواه !

لطالما أحببت الكُتب فزدت حُبًّا لها لمّا علمت شغفك بها وتعلُّقك بكلّ ذي دفّتين، وكُنت أهوى التعلّم منذُ صِغَري فتضاعف الهوى عندما عرفت أنّك تعشق العِلم وأهله وتبذل في سبيله كلّ غالٍ ونفيس.

يعلم الحنين كيف يأخذ بناصية القلب إلى أماكن الذكرى، يجرُّ الروحَ جرًّا ويتلمّس العَبَق، ودونه أثر المِسك.

كتابٌ صغير علاه الغُبار على رفِّ المكتبة، ذكّرني ككلّ شيء بك، وأنّي قرأته يومًا عليك.

كم كُنتُ أغَار من تِلكم الصّحبة التي تَحظى بها؛ أنت والكُتب، وأنت والصّحْب رفاق العلم.

كُنتُ أغار عندما تأخذُك الرُفقة بعيدًا عنّي، فأراكَ بعينِ المُحبّ التي تستمدّ

نورها من بصيرة القلب المُتيّم، فلم أكن أراك رأي العين، لكنّك كَنت تُسمِعني حكاية منك كيف كُنت تقرأ عليهم ويقرؤون عليك، فتشخص أمامي وأنت بينهم، قدّ علا شأنك عليهم وإن كُنت أمام العلم مُطأطأ الرأس تواضُعًا له !

كنت تبتسمُ أمام حماستي أن أقرأ عليك مِثلهم أيُّ نصّ، أرى في عينيك لمعة تبرُق من أثر فخر أستاذ بتلميذه، ولا يتعارض ذلك مع ابتسامة ساخرة ترتسم على الشفاه أنّ طريقك طويل يا صغيرة.. طويل !

كُنت أقف على أطراف أصابعي أشُبُّ برأسي عن طوقك، لم أكن أفعل ذلك كي أباريك طولًا وعلمًا؛ وإنّما فقط كي تراني !

أعَدت قراءة نفسي مُذ عرفتك، فتحت لي عوالم الروح التي لم أكن أعرفها، علّمتني ورحلت.. ناديتَ نفسي المُثقلة أن: أشرقي، وتولّيت أنت ثُمّ أفَلت!

علّمتني أنّي بدونك قد أعيش، لكنّ الحياة بدونك لا تستقيم.

هلّا رجعت لتُتمّ درسَك أو رُدّني إلى جهلي القديم!

***

رسالة (١٥)

يومٌ بعيد

إلى هذا اليوم البعيد...

يوم خطوتُ على لوحة العُمر خطواتك الثابتة الأولى التي لا تعرف من الألوان سوى الأبيض والأسود، ومنهما تغرف..

بقعة بيضاء بلون النقاء.. لون البراءة.. لون الصفاء..

وأخرى سوداء بلون الحزن.. لون العجز.. لون البُكاء..

وهكذا سرت أمدًا طويلًا لا تعرف غيرهما من الألوان لترسم بهما تفاصيل الأشياء.

حتّى امتدّت إليك كفّ بألوان السعادة، فألقت على روحك منها ألوان الحياة، ترسم أرضًا وجبالًا وسماءً، تلالًا وسهولًا خضراء، جداولَ وبحارًا زرقاء، زهورًا بلوْن الحب حمراء والغيرة صفراء.. ما تشاء كيف تشاء...

وأنتَ لا يعنيك سوى الكفِّ التّي علّمتك ما لم تكن تعلم حتى صرت أسيرها، والرّوح رغمًا يأسرها العطاء.

ثمّ غابتِ الكفّ والألوان والأشياء، وبقيت صفحة العمر من بعدها لا حياة فيها؛ خاوية على عروشها.. صمّاء.. جرداء!

وكَنتُ أنا في ذاك الحين مثلَ لوحة فنيّة زيتية، ذهبت ألوانها ولم يتبق سوى الأبيض والأسود وبعض المساحات الرمادية، جفّت وتشققّت أرضها من قِدم الأحزان فيها، فجئتني على مثال الطيف اليافع وقد حيزت لك ألوان السعادة كلّها فطفقت بجنبات روحي تسقيها تارة بسماويّة الأزرق وتارة بنضارة الأخضر، وحرارة الأحمر الدافق تُناوش حمرته غيرة الأصفر! وكان لفرشاتك عمل المُبدِع الذي جاء بألوان وجوده فصيّر الساكن مُتحرّكًا والراكد جاريًا وأخفى سابق الأحزان بصنيع فنان. لم تُبق من الأسود إلّا غموضه وتركت أبيض الأحلام وبعض الرمادي المجهول مُخبرًا عن هذا الذي قد كان...

***

رسالة (١٦)
أنتِ غريبة

عذبٌ ولعينٌ هذا الحب، عذب ولعينٌ هذا العطب الذي يحدث في قلبك ويجعلك تعجز عن أن تتوقف عن الاهتمام بواحد ما

محمود توفيق

كم كنتَ تنعَتني بالغرابة، يُبكيني وصفُك وتضحك أنت، كنت أسألك: ما وجه الغرابة فيَّ؟ هل اختلافي عنك؟ أم اختلافك عنّي؟!

وقد كان أغرب ما فيَّ حقًّا؛ تَمَسُّكي بمعرفة ما الذي كنت تعنيه بأنّي *غريبة*؟

كنتَ مرآتي التي أرى فيها نفسي، أراها بعينيك، وأستيقن أنّي كما تراني أنت، لم أكنْ أرى نفسي إلّا من خلالك، أرى ملامحي وانعكاس صورتي في لفظك ونعتك وحديثك إليّ!

ألقيت- عمدًا- أحجارَ الغضب وحصى الوحدة، أرجم بهم كلّ المرايا، وأكتفي بانعكاس صورتي على مُحيّاك..

فتلك الكلمات التي كُنت تقذف بها في وجهي قاصدًا تارة، لا مُباليًا أخرى؛ كانت تزيدُ من حنقي وحُزني، كانت تُريني ضعفي وقُبحي، كانت تُهيلُ الثرى على نفسي، وكم أحيت من مواتِ نفسي، بكلمة تنطقها تُظلِمُ روحي ويخبو همسي، وإذا ما أومأت راضيًا؛ تُشرق بعد حينٍ شمسي !

***

رسالة (١٧)
رسائلُ صعبة

أصعبُ الرسائل تلك التي أمزّقها مرارًا ثمّ أُعيد كتابتها، رغم أنّي وحدي من يكتبها، ووحدي من يقرؤها!

أصعبُ الكلمات تلك التي أحبسها كي لا تخرج، ثمّ تستقرّ في غفلة منّي على صفحة رسالة إليك.

وأصعبُ الشكاية تلك التي أكتمها عمّن وعدَ يومًا أنّ يظل بالجوار، ثمّ أخرّ على باب الألم فأشكوها وأشكوه.

أنْ أُخرج ذاك المدفون في أعماقي وخلف أضلعي، وأفقد كلّ الحصون المنيعة التي بنيتها ادّعاءًا أنّي شُجاعة بما يكفي.. لأبقى بعدك !

مكانك الخالي إلّا من أثرك وصفير ريح الحنين في فراغك الكائن في قلبي، كلّ ذلك يُجبرني على مخالفة عهدي لك، ولنفسي، بأن أتلبّس ثوب القوة ورداء الادّعاء! كذبت، وتعبت!

***

رسالة (١٨)
سرٌّ لا تعرفه

ما بال جُرح فقدك لا تداويه السنون

ما بالُ طيف ذكراك يزورني كلّ حين،

همست يومًا إلى إحدى رسائلي:

أنتَ السرُّ الذي لا يعلمه أحد؛ ولا حتى أنت !

كتمتُ ما استطعت حتى لم أخبرْ يسارَ الروح ما أنفقته إليك يمينها، ونحّيت الجوارح جانبًا.

أوقفتُ عملَ اللسان أن تُخبرك عنّي، وحبست أقدامي عن السعي إليك فرارًا منّي، وقفت لهم جميعًا بالمرصاد، لكنّ القلب أعجزني فخلّيت سبيله رغمًا وصرفته فاعتنق التمنّي.

نسيتُ أن أُخبرك عن أقلام شقيّة وأوراق متمرّدة وكفّ جموح اعتادوا التجسّس عليّ وخيانة الصمت من حين لآخر برسالة إليك!

***

رسالة (١٩)
ابنتنا

***أنجبني..**

كي تُنادَى بين الرجال باسمي

كي أحملَ جيناتك في دمي

واسمَك على جواز سفري

وأنتسبَ إلى مسقط قلبك

ما كان لي قبلك من أحد*

أحلام مستغانمي

إلى المُفارق هجرًا،

بنبرة صوتٍ حنون احتويت

تقول ابنتي وأنت أبي

بمرح الصبا والجنون ابتسمت

فهشّ الفؤاد لذاك الصبي

هل تذكر أنّنا يومًا ما حلمنا أن تكون لنا ابنة؟

أميرة! حتمًا ستجعلها أميرة، كتلك الرقيقة الصغيرة ذات التاج اللؤلؤي يُرصع خُصلات شعْرها الذهبي، فأسافر في أشعة شمسها وأحلم بأميرتك الصغيرة وقد قلّدتها تاجَ حُبّك الأبويّ، مَلَكيُّ المشاعر أنت، سيّد في الخصال، يليق بابنتك أن تكون أميرة!

أتراها؟! هي جيّاشة المشاعر، رقيقتُها، تبكي وتضحك في آنٍ واحد، قدّ جَمَعَت النقيضين؛ تمامًا مثلي أنا.. حالي معك؛

أمانٌ وخوف، سُكون وغضَب، إقبال وإدبار، ضَحِك وبُكاء...

ما اكتملَت لي ابتسامة مَعَك إلّا وأتممتها بِبُكاء، وما أصَابَني حُزن إلّا وأبدَلته أنت بسعادة وهنَاء.

هوَ حالي معاك! لا.. لست أنت السبب؛ بل هي الدّنيا!

***

رسالة (٢٠)
الأدبُ واللغة

أتنفّس حضورك أحيانًا عندما يهُبّ نسيمك على الروح رغم الغياب، فأشعر أنّك ترقبني من حيث أنت، وتطمئنّ عليّ في صمتٍ لا يسمع كلامه سوى قلب متربّص متلهّف مكلوم بالهجر!

لا أدري أيّكما سبق الآخر في نفسي، اللغة وأصحابها، أم أنت؟

وهل أصبت منزلتك التي في الروح لأنّك عاشقٌ للّغة وأهلها، أم لأنّي أحببت اللّغة ومَن يكتب بها لأنّهم يدلّون عليك؟!

أذكرُ أنّي أحبّ الأدب والأدباء منذ عهدٍ قديم، مُذ أدركت تفاصيل الحياة وجمالَ تلك الأشياء الصغيرة فيها، تلك الكنوز المخفيّة التي قلّمها يُدركها أحد، ومن يُدركها تُصبح حينها سرّه الصغير القابع في أعماقِ روحه، يحفظ لها نضارتها ورقّة طبعها ويُبقيها على أصلِ فطرتها نقيّة لا تعرَف إلّا النقاء وأصحابه.

لكنّي أعدت قراءة نفسي منذ عرفتك، فأخذت بيدي المُثقلة بالحياة وما فيها، وكنت حاديًا للروح في طريقها تسير على دفء صوتك، لتعلم مواطن القوة فيها وتُخرجها من مكامنها، وكذا مواطن ضعفها لتربّت على كتفها وتستعين بسابق القوّة على لاحق الضعف، ذكّرتها كم كانت تُحب لغة الضاد وأصحابها.

علّمتها أن تقرأ من جديد.. تعرف من جديد.. تُبصر من جديد كلّ شيء جميل.

عربيةٌ فُصحى؛ تُفصِح عن جماليات اللغة، وأُفصِح بها عنك، ثُمّ أُفصح بها في رسالة إليك...

ما كذبتك عندما قلت إنّهم سبقوني إليك في بادئ المعرفة، وسبقتني إليهم في حقيقة الإدراك.

وتساوت خطواتُكما نحو روحي ليُرجع كلّ واحد الفضل إلى صاحبه، وأرجع إليكما سرّ الحياة التي كنتما الأسباب التي بها عاد نبض الحياة من جديد، بعدما ظننت أنّها منذ ذلك العهد البعيد.. البعيد!

***

رسالة (٢١)
رسائلُ قديمة

عندما نريد أن ننسى دفعة واحدة، علينا أن نتفادى النظر إلى الخلف حتى لا نُجَرّ إلى نقطةِ البدء، كلّ التفاتةٍ هي محاولة يائسة للبقاء

واسيني الأعرج

أبحثُ عنك في رسائلي القديمة، أبحث عن تفاصيل غابت عن نظر الروح والقلب، ولا أفعل ذلك لأنّي نسيتك، وإنّما لأنّك غبت عن الدرب.

بعثتك رسائلي من هوّة الفقد، وردّك إليّ الحنين واليقين.

أنتَ أولى الناس بالسؤال عنّي، وتفقّدي في الغياب؛ أنت أحق به منّي.

أوثرك بكلّ شيء، وأقبل أن أكون لك ظالمة على أن تفارق أنت فتظلمني.

الغيابُ يصنع عالمًا من الأحزان أكون فيه وحدي وأكونك معي بالتخيّل والتمنّي!

لستُ أدري،

أحملُ إليك أشواقًا هائلة لا أملك مفرداتٍ تصفها، وأخشى أن أبخسها إذا ما دسسْتها قهرًا في كلمات هي أقلّ من أن تحتويها.

لكنّي أكتب لأقتلَ الغياب برسالة إليك، لن أستسلم للفقد فأتوقف عن الكتابة، ولنْ أعوّل على تلك الأشواق لتصلك بدون بساطٍ يحملها.

هل مشاعري صادقة للدرجة التي قد تصلك بها نسائمها في قيظِ البُعد؟

لا أدري، ولا تصلُني منك رسالات تحمل إجابات لأعرف بها إن كانت رسائلي المحمولة على جناح الروح قد بَلَغَتْك.

وهل ستقرأ يومًا رسائلي التي ضاقت بها حدود الكلمات ذات يوم؟ لستُ أدري.

***

رسالة (٢٢)

حلاواتُ الرسائل

***وأحسنُ أيامِ الهوى يومكَ الذي ... تروعُ بالهجرانِ فيه وبالعَتْبِ**

إذا لم يكنْ في الحبّ سخطٌ ولا رضا ... فأين حلاواتُ الرسائلِ والكتبِ؟*

العباس بن الأحنف

أبياتُ شعر عجيبة في وصفها للعباس بن الأحنف، للرسائل حلاوة إن كانت رائحةً غادية بين قلميْن وقلبين، ولكن كيف تكون حلوة إن كانت من جهة واحدة!

أين الجمالُ في رسائل حبرُها نزْف روحٍ مُتعبة من هجرٍ لم يكن يومًا أحسن أيّام الهوى، فماذا عن أيّام كانت تُشرقُ بابتسامة من صاحب القلب ويُضيئها وصلٌ حلال بشقِّ الروح ونصيفها؟!

في ذلك الحين كان السخطُ نعم، وكان الرضا، لكن أشدّ السخط كان في غضبةِ الغيرة أو شدة الشوق ولوعة الحيرة، أمّا الرضا؛ فكل أيّام وجودك كانت عين الرضا.

للرّسائل حلاوة لا يحقّ لأحد أن يذوقها إلّا صاحِبُها وإلّا فإنّها مُرّة.. علقم يُرَدُّ مرارًا في حلق كاتبها!

ليس كمثلِ الحُزن باعث على كتابة رسالة إليك، فكم رسالة كان مدادها من أدمُعي، نزفتها ألمًا وأنت لست معي.

أشدّ من ألم الفراق تخيُّل لقاءًا بعيدًا لا يجيء.

أيأسَى القلب على الحبيب قهرًا، ويبكيه دمعًا الزمن الطويل؛ فمن ذا الذي خَطّ الفراق إذًا؟ ومن ذا الذي ابتدر الرحيل؟

سِجَال

القلب قال: به أكتفي
والعقل قال: هو مُتلفي
والعين حارت في السؤال
وتَنَبأت طول السّجال
لا القلب قرّر أن يتوب
ولا اعتزل العقل القِتال
والعين ترقب في الظلال
حبيبها بطرفٍ خفي
*** * ***
يا مُشعِلًا نار الهشيم
وتلوذ هربًا.. تختفي!!
النّفس صارت كالصريم
ما كنت يومًا مُنصفي
*** * ***
أعلِن سلامًا بينهم
القلب والعقل وعين حائرة
اجمعْ معي أجزاءَهم
قبل الرحيلِ عنّا مُهاجِرا
احسمْ صراعًا دائِرا
كُنْ بي حفي!
****

رسالة (٢٣)
أتدري ما الوحدة؟

بمرارة الحزن والفقد أسطّر لك رسالة اليوم..
بحجم الوجع، بحجم الألم، وبحجم خسارتي فيك...
بحجم الموت الذي خيّم علينا، ففي كلّ مكان موتٌ وألم
علّمني الموت أن أحتاجك أكثر، وأزهد فيك أكثر...
وأنت. ألم تتعلّم من الموت شيئًا؟!

ما أصعب أن تترك حسرة في قلب أحدهم؛ وكنت قادرًا على ألّا تُذيقه إيّاها.

أتدري ما الفقد؟ وما الاحتياج؟

أتدري ما الوحدة؟!

الوحدة هي أن أخوضَ غمار الحياة وحدي، بعد أن عرفت جوارك، أن أُسلّي نفسي بقراءة كتاب فيلوح طيفُك على صفحته، يمحو كلماته ويُذكّرني بأنّك لستَ هنا كي تُناقشني فيه.

تُعلّمني إذا جهلت، وتُجادلني إذا عاندْت، وتصفّق لي إذا فهمت، وتظلّ تضحك كثيرًا منّي، وتشعر بفخرٍ نحوي وغيرة عليّ.

الوحدة هي أنْ أسترجع ذكرى عشناها معًا، فينطلق لساني بحديثٍ، فلا أسمع لحديثي ردًّا؛ بل رجع صوتي المخذول حزنًا من فرط ثِقَل الوحدة.

***

رسالة (٢٤)

معَ الرافعي

أُحبّ أن أُغرق نفسي بين أسطر الرافعي؛ لأنّه يشغلني عنك ثمّ يُذكرني في كلّ حرف بك!

يقول الرافعي؛ صاحبُ الكلمات الممتلئة بالمعاني: *لا يجمع الطفل على نفسِه همّين في وقتٍ معًا؛ بل يحصر نفسَه في الهمّ الواحد ليخرج منه أقوى وأسرع ما استطاع، ولكن أين مَن يقدر على هذا إلّا الطفل في همومه الصّغيرة؟*

قُلت هلمّي يا نفسُ نُحيل المكتوبَ واقعًا فلا أجمع على نفسي الهموم، وأستحضر أنفاس الطفولة لتُعينني.

جمعتُ رسائلي القديمة وجعلتها في حزمةٍ عقدت عليها شريطًا ناعمًا من السّاتان، أوهم نفسي أنّها صارت عصيّة على القراءة وأنّي أخزّنها في رفوفِ الذاكرة حتّى تعلوها غبرة النسيان.

ولكن.. لماذا تعمّدت (دون قصد) أن أربطَها بشريط شعري الذي احتفظت به من زمن الطفولة الذي كان؟

ما الذي يجمع بين رسائلي إليك وتذكار الطفولة سوى البراءة والرّقة والنقاء.. والحنان!

ما الذي بينكما سوى الذكرى الجميلة ورسوخ البقاء في القلب والوجدان..

ماذا بينكما؟!

كلاكما أنا.. كلاكما حقيقةُ روحي، كلاكما هموم تجلب إحداهما أختها لا تفترقان، كلاكما نفسي التي أحبّت السعادة قبل أن تحترف الأحزان.

وكلاكما مضى يومًا ولن يعود، وهل يُعقل أن تُرد إلي سعادة مضت، وهل يجود مرّة أخرى بكما الزمان؟

ليته كان!

***

رسالة (٢٥)
عذابُ نفْس

أوجزَ الرافعي في عبارةٍ دقيقةٍ أشدّ عذابات النفس لمّا قال: *ما أمر عذاب مَن وجد الضروري له مستحيلًا عليه*

هكذا ببساطة قالها الرافعي.

لكن.. هل قالها واصفًا حاله أم أنّه علم عن رحيلك قبل الرحيل بأعوام كثيرة؟

ولماذا لم يستفِض ويُخبر.. ماذا بعد المرار؟!

ماذا بعد أن نتجرّع مرارة استحالة الوصل بعد الفقد؟

أحببت الرافعي مثلي، لكن هل أحببته لدرجة أن تُذيقني جميع ما سطرت أنامله المُبدعة؟

الرافعي يكتب وأنت تحكي بذاتك، وأنا.. وحدي الذي يتجرّع المرار!

ووحدي الذي تمثّلت في روحي روح الرافعي ألمًا؛ لمّا فارقتني ورحلت!

الرافعي رحلَ وتركَ لي كلماته، وأنت رحلت وأحييت برحيلك في نفسي المعنى من تلك الكلمات!

***

رسالة (٢٦)
رهبةُ العودة

عزيزي الغائب،

أستأنفُ الكتابة إليك بعد غياب، غياب!

لا.. فالغياب يُذكّرني بك.

ولأنّ اللقاء قد تعذّر في الحضور، فربّما نلتقي في الغياب.

الغياب هو بقاءُ الروح رغم رحيل الجسد، يا شدّ ما أتألّم من رحيلك أيَّها الحاضر الغائب!

عجيبٌ أن تتعثّر الكلمات منّي لتخرج متفرّقة وغير منمّقة.. لا تليق بك ولا بحجم الوجع الذي أحمله؛ قدّ أصابتها حمّى ارتعاشة يدي التي أكتبها بك، مهتزّة هي كخطواتٍ المعاق الذي أوجعته الأشواق، وبالكاد عاود المسير بعد سكونٍ بدَا له طويلًا وهو في حقيقته زمن يسير.

للعودةِ رهبةُ المرّة الأولى وارتعاشتها وارتباكها، غير أن الأولى تحمل معاني اللهفة والأمل والرغبة في اقتحام المجهول، بينما العودة من الغياب تحوي الكثيرَ من مشاعر اليأس والخيبة.. ورجاءً أبطن انقطاع الأمل.

شتّان بين هذه وتلك.

لا ينبغي أن نُهلك أنفسنا في نسيان ما لا يُنسى وكأنّنا تُثبّت دعائمه في قلوبنا دون أن نشعر!

ورغمَ هذا تظلّ كلماتي في الرسالة حمّالة لكلّ ما أبى الغياب أن يُفنيه، ليعود القلبُ أكثر شوقًا وأشدّ ألمًا، لتعود رسائلي إليه.

***

رسالة (٢٧)

ثرثرةٌ في الحضور

الغياب شكلٌ من أشكال الحضور، يغيب البعضُ وهُم حاضرون في أذهاننا أكثرَ من وقت حضورهم في حياتنا

سعود السنعوسي من رواية (ساق البامبو)

كانت صديقتي تقول لي: ألا تتحدّثين أبدًا؟ كثيرة الصّمتِ أنتِ فلا يُعرف عنك شيء!

إذا أحبّ المرءُ صار ثرثارًا أمامَ مَن يُحبّ، حتى لتحسب أنّه لن يسكت أبدًا، فإذا تحدّث رفيقه غَرَق المُحبّ في لُجّة الصمت مُنصتًا في حُبٍّ وفي إجلال، لا تسمع له ركزًا.

لا أدري كيف جَعَلتَ منّي ثرثارة إلى هذا الحدِّ من الضَجَر، كيف سبرت أغوارَ الكلام بداخلي، وفجّرت زَمْزَمَه فما عاد يجف أبدًا، لكنّه لا ينبع إلّا لك وحدك، معك أكون ثرثارة فلا أتوقف عن الكلام، فإن لم يكن باللسان فحديثُ صمتٍ طويل، ومفردات محبّة أرسلها لك بلحْظي المتأمّل فيك.

يقولون إنّ المرأة إذا أحبّت أكثرت الكلام مع من تُحب، قاتلهم الله؛ صدقوا!

***

رسالة (٢٨)
ثرثرةٌ في الغياب

إنّني أقول لك كلّ شيء لأنّني أفتقدك، لأنني أكثر من ذلك (تعبت من الوقوف) بدونك

غسان كنفاني

أسألُ نفسي كثيرًا، فأنت تعلم أنّي أحِبُّ أن أتحدّث طويلًا مع نفسي، وأُجيد فعلَ هذا، وكنت فيما مضى أظنّه نوعًا ميئوسًا منه من الجنون، غير أنّه جزءٌ لا يتجزّأ منّي، فأنا أُحبّ حديث نفسي الطويل، ولمّا علمت أنّها إحدى علامات العبقريّة؛ أو هكذا زعموا، لم يفرق هذا الزعم في تمكّن تلك العادة منّي أو الزهد فيها، بقيت كما هي جزءًا منّي ألتذّ بفعله ولا يُريبني تفسير من حولي له.

ولمّا لاح قمرُك في سماء حياتي؛ كان من المنطقي أن يزحزح وجودك تلك العادة، وكلّما زدت وجودًا زادت هي غيابًا، فأستبدل نفسي بك لأتحدّث معك أنت طوال الوقت، حتى إذا ما حدّثت نفسي؛ حدّثتك فيها، فتزول وحشتي بك وتزداد الوحشة بعيدًا عنك.

لقد كنت دومًا هناك بيني وبين نفسي في مكانٍ ما ليس معلومًا لأحد، فكأنّك كنت أنت النفس التي فارقتني ثمّ عادت إليّ يوم صرت لي.. ومعي...

أمّا الآن، في غيابك...

عُدت لثرثرتي المجنونة وحدي، أتحدّث عنك مع نفسي، بعد أن تجلّى لي وجهُ الوحدة القبيح، ذاك الذي لم أره من قبل، فأرانيه بُعدك.

حديث نفسي في غيابك صار قاسيًا مثلك، يصفعني كلّ حينٍ ويُعيّرني بالوحدة، فقدت حلاوة التمتّع به، ولم يُبقِ لي إلّا مرارته، حتّى أشيائي التي رافقتي في وحدتي الطويلة فقدت معانيها بعد أن غبت عنّي وعنها، عاقبتني بغيابك ولا ذنب لي، حمّلتني وزر غيابك وأنت الملوم على الحقيقة، بقيت بصورتها، أمّا حقيقتها فقد حزمت حقائبها معك.

وأعجب من نفسي وحديثها؛ رسائلها الوحيدة مثلي، تلك التي تتهيأ على أجمل صورة فلا يأتيها من تهيأت له، تلك التي أرسلها على بريدٍ بلا عنوان، ولا أدري لماذا أكتبها، أثرثر فيها بحرفٍ مكتوب، بلا صوت، وأقولك لك فيها كلّ شيء، وأنت أمّيٌ في هجرك، أصمُّ القلب لا يُرجى لك شفاء.

لا بأس عليكِ يا عزيزي، والبأس كلّ البأس على رسائلي.

***

رسالة (٢٩)

العهد

ظننت أنّي عرفتني؛ لمّا عرفتك

وظننت أنّي وجدتني؛ لمّا وجدتك

الأحرف المجهولة حين التقت

نظمت منها عقدًا باسمك

على حافة الهاوية

ما كنت أدري ما هية

حتّى التقيتك

حتّى رستْ روحي على ضفاف قلبك

ما كنت أعرفُ ما الهوى

حتّى عرفتك

ما كنتُ أعرف ما النوى

حتّى فقدتك

ما كنت أعرف ما الحياة

علّمتني، وتركتني..

ألفظ أنفاس الهوى، وأموت بعدَك.

قدْ تعاهدنا على السيْر معًا، فحفظنا العهد ونقشنا الوعد، وما حسبنا حسابًا للبُعد!

وفيّة هي الأحرف المنقوشة المحفورة بعمق الذي كان، فلا يمحوها الزمان ولا يطويها النسيان، والأحرف المكتوبة وفيّة مثلها، فها هي تعود في رسائل من حينٍ لآخر تُخبر عن الذي كان.

كيف تكون أوفى ممّن تكتب عنهم، وكيف تناجيهم بمداد الحنين ولا تسألهم، أين ذهبتم وكيف رحلتم، وكيف ما مسّكم مسّ الوفاء وعلّمكم.. ومرّ عليكم نسيمُ الشوق يُعاتبكم.. هلّا بقيتم!

***

رسالة (٣٠)
فراقٌ مُخلِص

لا أريد أن تشخصَ أمام عيني حين ألقاك؛ اللحظة التي سنفترق فيها،

ففراقك مُخلص لا يغيب عنّي، مؤلم أن يصحبني عند الحضور؛ الغياب !

ولا أدري ما الجديدُ في يومي هذا غير أنّي صرت أرى شيئًا ما يربط بيننا أقوى من هذا الذي كان، شيء ما يصلني بك برغم البُعد حتى صرت أقرب إليك من أحدهم بجوارك، وصرت أنتَ أقرب إلي من دماء تتدفق من قلبي وتتجوّل ما شاء لها أن تفعل في عروقي.

أسررت إليك يومًا بحُلمي الصغير، وابتسَمت أنّ أقصى أُمنياتي بسيطٌ مِثلي، مجنونٌ مِثلك، ورغم هذا فقد تلبّست بالعقل وأبيت إلّا التعقيد، وتخففت من كلّ شيء، ثمّ رحلت.

وفي رسالتي هذه المرة أريد أن أكتب لك سؤالًا.. واحدًا فقط: هل تذكر كلّ ما كان؟ أعني هل تتذكّر تلك الأشياء والأماكن والتفاصيل.. كلّ شيء؟ أي شيء. حسنًا، لا بأس إن لم تتذكّر، فأنا أكاد لا أذكر ولا بأس إن لم ترجع.. فأنا لن أنتظر.. لا ليسَ أكثر، سأتغيّر سأتحرّر سأكسر الأقلام وأمزّق الأوراق، سأتمرّد وأثور وأهجر تِلك قناعات المساء المجنونة يمحوها نهار تعود فيه قائلًا: صباحُكِ سُكّر.

***

رسالة (٣١)

إلفُ الغياب

عتبٌ على عتبٍ، وما انقضى السببُ

والعجب ليس به، نسيانه العجبُ

البابُ موصودٌ والدمعُ مُنسَكبُ

ما أصبر القلب، ما ردَّه تعبُ

يشكو إذا بَعُدَ، موجوعٌ ويقترِبُ

ليت الهجرَ علَّمه يمنع ولا يَهِبُ.

اليوم، رسالة غير اعتيادية بحال

رسالة إليّ قبل أن تكون إليك، رسالة كان ينبغي أن أسجّل فيها طفرة حدثت في نفسي، تبدو كأنّها واردة عليّ، من مكانٍ قد علاه غُبار الخذلان، طفرة أرقبُ نموّها في تُربة الروح، نبتت من بذرة الغياب، سُقياها دموع الفقد والوحدة والعُزلة التي فُرضَت عليّ.

أخشى أنّي ألِفت غيابك، ويُرعبني أنّي أكاد أُحبّه، بل إنّ المفزع حقًّا أنّي فقدتُ بوصلة العودة إلى زمنٍ جمعني بك، وحياةٍ كانت ممتلئة بتفاصيل

وجودك.

يُربكني اليوم أنّي تخيّلت مشهد عودتك بعد سنواتٍ من الغياب، فوجدت شطرَ ابتسامة مائلة حزينة مُرسومٍ على شفتيّ، وجدت صورةً مفتعلة من مشاعر سعادة لم أعدْ أفهمها فضلًا عن أن أشعُر بها، غرقت في حيرةٍ لطمتني أمواجها وأنا أتخيّل كيف يمكنني الامتلاء بتفاصيلِك مرةً أخرى وقدّ حلّ محلّها الخواء منك والامتلاء بتفاصيلٍ أخرى غيرك.

ولا أعني بذلك تفاصيلَ شخصٍ آخر، وإنّما أشياء أخرى غيورة، كنت صيدًا ثمينًا لها، العُزلة المُرّة فازتْ بي عندما فضّلت أنت خسارتي، حازت النصر عندما أوقعتني أنت في شَرَكِ الغياب، فظفرت هي بي مع طول زمان الهجر، وظُلمة الحُزن التي غشيتني، فغفلت عنها أول الأمر مُكرهة ثمّ أتيتها طائعة لا حيلة لي في صدّها.

كان القلب مُنشغلًا بك، وكانت ماكرة صبورة توسوس لي بكل جرائمك في حقِّ قلبي، لقد قاومتها طويلًا صدّقني، لكنّك وافقت فحيحها بِسُمِّ هجرك الصادق، صَدَقَتْني وهي كذوبة، وكَذَبْتَني أنت وكنت الصادق المُبرأ عندي من ذنوب الهجر جميعها.

أعنتها عليّ، قصدت ذلك أم لم تقصده، وثَابَرَت هي لمّا صَبَرت على هزيمتها الأولى أمام طوفان ذكراك، حتّى حظت بي في النهاية أو تكاد تفعل.

***

رسالة (٣٢)
رسالةٌ أحاديّة

عزيزي،

كنتُ لك النور الذي تنفَّس في جَنَبَات حياتِك المُظلِمَة؛ فاخترت لي الظِلَّ لتمكُث فيه، انصعَت بفطرةِ الطاعةِ والانقيادِ فيّ، وتلمّست في وجهِك الشّمسَ، ومِن وجودِك النَّسيم لعلّي أنمو؛ فذبُلت!

وأنّى للضوءِ أن يعيش في كنفِ الظَلام!

كنت باقية على الأعتابِ لا أجيد إلّا أن أكون نِبراسًا مُضيئًا، ربما يومًا ما تُدرِك أنّك بحاجة إليّ.

أخشى عليك؛ فطولُ الظّلام قد يُصيب صاحبه بالعمى!

الآن قد آنَ أوانُ الانزواء في تلك الزاوية الصغيرة من قلبك، ستنمو حولي خلايا الأيّام حتى تألفني ولا تلفظني، أرعاك من حيث أنا؛ خلية من خلايا جَسَدك؛ ليست خبيثة لتنمو فتأخذ ما ليس لها بحق، لكنّها حميدة لا غاية من

وجودها إلّا الاطمئنان عليك.

***

رسالة (٣٣)
كذبٌ جميل

كاذبٌ أنت؛ لأنّك وعدت بالبقاء ثمّ رحلت..

وكاذبةٌ أنا؛ لأنني وعدت بنسيانك وما فعلت.

لا أُطيق اجتماعنا ولو في الكذب..

لا أطيقه كذبًا.. كلّ ادّعاءاتي بالكراهية والنسيان كاذبة.

لطالما كرهت الكذب، فكيف جعلني رحيلك أحترفه في غفلةٍ منّي عن نفسي.

لا يكون الحُبّ حبًّا إن أحال نور قلوبنا إلى ظُلمة مُطبقة، ولكن أين المتّهم الحقيقي المُتلبّس بهذا الذنب العظيم؟

أنا.. أمّ أنت، أمّ الغياب؟!

المُفجِع أنّك رحلت بلا كلمة واحدة، ما بين غمضةٍ من عينِ الروح وانتباهة لها؛ لم أجدك!

لم تترك لي جُرمًا واحدًا أعلِّق على شمّاعته أسبابًا للنسيان، لم تترك لي شيطانًا أرجمَه بجمراتِ غضبي عليك وأسفي لرحيلك.

لملمتَ أشياءك؛ بل أشياءنا في غفوةٍ آمنة لقلبي الذي بين كفّيك، ومضيت عنّا.

واستيقظتُ أنا من غفوتي فَزِعَة، تقرضني أشواك الوحدة، وتقرصني برودةِ ليلٍ طويل.

خيالٌ هي قارورة العطر؟ كيف إذًا لا يزال شذاها في أنفي؟

وأوراقُ الورد الذابلة من أين أتيت بها إن لم تكن منك؟ وكأنّي بها على ذبولها مازالت في نضرتها الأولى؛ يوم وقفت على نهاية طريق ممسكًا بها، تمدّها إليّ وقد حملتها، وأذبت الشوق في أوراقها، فذبلت هي وبقي الشوق يانعًا لا تذهب نضرته.

استجديت طويلًا رسائِلَ العودة، والآن فأنا أستجدي رسائلًا فقط؛ تحمل أسبابَ الرحيل.

كاذبةٌ أنا للمرة الألف..

إنّما أستجدي رسائلك لأنّها منك، وكلّ حرفٍ منك؛ بل كلّ شيءٍ منك وفيك.. جميل!

***

رسالة (٣٤)
جُعِلتُ فِداكِ

هكذا قالها فَزِعًا يومًا ما.. دون تلعثُم أو تردُّد أو تشكُّك

بل بصدقٍ لفحتني حرارته مع كلّ حرفٍ من تِلك الجملة

هل كنت غالية عنده إلى هذه الدرجة، أم أنّ نفسه هي التي كانت هيّنة عليه، أم الاثنين معًا؟ إذًا.. إنّ نفسه هانت أمام نفسي فاختارني بصدقٍ غير آبِه..

لماذا لم يسألني: ماذا عنّي؟

لِمَ اشترى وجودي بغيابه؟

مَن قال إنّ بقائي له قيمة إن غاب؟

كُنّا في الوجود سواء، وكان ينبغي أن نكون في الغياب سواء..

لا يشقى الراحلُ برحيله بقدر ما يشقى الذي بقي بعده!

جُعِلتُ فداكِ.

جملةٌ ظاهرها محبة خالصة، إلّا أن حقيقتها إهداء الألم والحسرة..

لم يكن ليتحمّل ألم غيابي وبقاءه؛ فألقى عليّ عباءة العذاب وارتدى عباءة الغياب ثمّ رحل.

حَفِظ لي الوجود فارغًا ورحل هو ممتلئًا بكلّ شيء!

***

رسالة (٣٥)
نفثةُ المصْدور

***فَيا بُعْدَ مَا بَيْني وَبَيْنَ أحِبَّتي**

وَيا قُرْبَ ما الْتَفَّتْ عَلَيهِ الصَّمائِرُ

وَلوْلا أمَانِي النَّفْسِ وَهْيَ حَياتُها

لَما طارَ لِي فَوْقَ البَسيطَةِ طائِرُ

فَإنْ تَكُنِ الأيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنا

فَكَلّ امْرِئٍ يَوْمًا إلَى اللّهِ صائِرُ*

محمود سامي البارودي

كلمات نفثة المصدور الأولى التي ستتبعها لفحات أخرى من جحيم البُعد والفقد.

كم كانَ القُرب حليفنا حتّى ظننت أنّه لا بُعد بعدَ القرب أبدًا، ثمّ كان البُعد الذي أهلكني حتّى استيقنت أنْ لا قُرب مُجدّدًا.

يا ظلمةَ النفس التي لمّا أنارت أطفأتها بالرحيل، ماذا عن قبسٍ من أملٍ لست فيه؛ ما حيلته بليلٍ طويل؟!

قد كان نهاري ذا شمس، وليلي ذا قمر، وكلاهما بفقدك قدْ ولّى وغاب. الدمع في العين والحزن في القلب وبسمة الثغر للأهل والأصحاب.

أحيانًا يبدو لي أنّك في غيابك السرمدي ترقبني من بعيد، وتظنّ أنّي أعيش سعيدة، وكيف تتصوّر أنّي أعيش بالأساس كي تكون حياتي سعيدة أو غير سعيدة!؟

كنت أتمنّى لو تمكنت من أنْ أحكي لك كلّ ما حدث مُذ رحلت حتى يومنا هذا، أحكي لك حكايات أربع سنوات تامّات كاملات فيهنّ ما فيهن ممّا لقيت في غيابك.

أريدُ أن أحكي لك كلّ ما كان، وأستودعه إيّاك، وأتركك إن شئت وأنصرف إلى حياة ليست كالحياةِ ولا الممات، اللا إحساس الذي يقتات على روحي تلك السنوات المُرهِقات المُهلكات.

تلك التي عرفتها مِن أربع سنوات ليست تلك الموجودة الآن بحال.. آه ممّا أجد، والله إنّي لأجد مثل ما تجد إن كنت مكرهًا على البُعد مثلي، كنت أرجو أنْ أكون وتفاصيلي الصّلة بينك وبين الحياة وتكون أنت لنا الحياة.

بقدْر ما أقصيتني بقدْر ما علّمتني التسليمَ لله ربّ العالمين. وحدك كسرت عزيمتي وإرادتي، وجعلت ناصيتي تُمرّغ في التّراب أقول تالله لا شيء في الكون إلّا ما شئت ربَّنا.

ليتَك قرأت كلّ حرف كُتِب في غيابك من أوّل كلمة وُلِدت على أعتاب فقدك وصولًا لأحرفي الهوجاء اليائسة منك ورسائلي الخاوية من الحياة وكلّ شيء.. أضعف أنا مِن أنْ أفعل ما أردت يومًا. فليكن ما أراد الله، وحده يعلم ما أعانيه وما أكره نفسي عليه، وما أبكيه، وما تزهق نفسي لأجله.

أمنياتي الصغيرة التي أقصيتني وأقصيتهم وقطعت دابرَ الحلم في غيرهم، ثُمّ أفنيتُ نفسي وإيّاهم سعيًا إليك وصبرًا وأضعت في سبيل ذلك عمرًا.

أنت خُسارتي التي لا يُعوضها أيّ شيء، وهزيمتي التي لا يجبرها كلّ فوز.

***

رسالة (٣٦)
باقةُ الأزهار

موسمٌ للحنين، وموسم للشجن، موسمٌ للأنين.. والفرح بلا زمن

أتُحمل المحبة على جناح الاحتياط؟

إن شِئت أعلنتها، وإن ضقت زهدتها!

المحبّة ليست موسمية مثل أوراق الشجر، تُزهِر تارة وتسقط أخرى بلا مُستَقَر

بل إنّ آية صدقها أنّها: إذا مرّتْ عليها كلّ المواسم عصفتْ بكلّ شيء ولم تمسّها!

أُحبّ الزهور، وأُجيد الفهمَ عنها، وعندما أبصرتها تذكّرت عهدي القديم معها، تلك الزهور أخبرتني بكلّ شيء جملة وتفصيلًا، ولقد فقهت حديثها المنطوق عبيرًا ولونًا جميلًا.

وكلّ شأن جميل مرّ علينا مثله مثل أوراق الورد، ملوّنة رائعة عَبِقة، لكنها سرعانَ ما تذبل وتجف وتصير ذكرى.

الوردُ مخلوق لطيف؛ يُذكّرني بالأطفال، إذ أنّهما يتّفقان في رسم ابتسامة على الوجه والقلب طوعًا وكرهًا.

وهدية الأزهار هدية ذات بريق لا ينطفئ، تحتاجه كلّ أنثى ذات رهافة في الحسِّ، لو أنّا أشبعنا تلك الحاجة في نفوس مَن نُحِبّ لكفيناهم شرّ عبوس الرّوح، أو أن ترسو قلوبهم على شطآن لا تليق بهم.

ماذا لو أهداه الأبُ لابنته، والزوج لزوجته والأخ لأخته، وحتى الأخت لأختها؟!

كم فرّطنا فيما لا تفريط فيه، وأضعنا لحظات سعادة لا تُكلّفنا إلّا محبة صادقة؛ فحسب!

صنعتُ طوقًا من زهور الذكريات والأمنيات، حتى إذا كدت أفقد بالمستحيل كلّ شيء، بقي طوقُ الزهور على جبين الروح يعدُ بغدٍ من عبير.. من يقين.

تَحقّقت فيه بعد أن كُنتَ حلمًا يحبو على درب الحنين، بعد كلّ تلك السنين..

ثمّ جَلست على حافة الوعد المُعلّق بقيد الانتظار؛ أرقب الحُلم القديم، أنت وباقة الأزهار!

باقة زهوري؛ أتذكرها؟!

ثلاث وردات بيضاء، وثلاثٌ صفراء، وواحدة فقط حمراء...

كيف غفلت حينَها عن سؤالك؛ لماذا اخترتها على هذا النحو العجيب؟

ولكنْ ما همّني حينها إلّا أنّها رسولُ محبّة منك، وباقة الزهور الأولى التي حدّثتني عنك، وطمّعتني في المزيد من الأزهار التي تُكّرني بك.

من فرْط المحبّة واشتعال الحماسة والشغف في قلبي؛ كنت حريصة عليها أشدّ ما يكون الحرص، وددت لو بقيت كما هي، نقية نضرة لا تذبل أبدًا.

ساءني أنّها حتمًا ستذبل يومًا، مهْما حاولت جاهدة أن أُطيل عمرها، أحزنتني فكرة أنّها ستذبلُ وتموت، وكنت أقول لنفسي: كلّ الزهور تذبل إلّا زهور الحبيب!

ولكنْ.. كيف لي أن أُنقذها من مصيرها المحتوم؟!

كنتُ أسقيها كلّ يومٍ بدموع الحُبِّ والخوفِ والصبر والرجاء كي لا تذبل.. والعجيب أنّها استجابَتْ وبقيت كما هي.. أشْفَقَت عليّ ولم تذبل، بقيت على حالها، جفّت قليلًا لكنّها بقيت.

الحمدُ لله؛ أسقيتها دموعَ الروح كي تحيا، فكان الموت من نصيب الروح!

***

رسالة (٣٧)
العيد

وكيف العيدُ من دوني.. سعيد؟!

بدونك ليس ثمّة عيد

بعض ادّعاء على أشباه ابتسام

إيماءة مودّة بلا كلام

أغْدو وأروح بين القوم

ألقي السلام.. وأهديك بالروح.. سلام!

بين الجمع.. أنت وحيد

فحيثُ كان قلبك

ذاك هو العيد!

تمزّقت الأوراق وكُسِرت الأقلام؛ آيات رفض لأن تنصاع أسيرة رسالة جديدة...

فأبتِ الكلمات إلّا أن تخرجَ بأحرف من دمعٍ سال على الوجنتين رغم ابتسامة الشّفاه في يوم العيد.

يومًا ما سيتمّ بدرُ العيد بوجودك؛ وحتى ذلك الحين فإنّ انتظارك فرحة!

***

رسالة (٣٨)

مازلت هُنا

يا أحرفَ الثلج..

بالأمسِ كنتِ شوقًا تقطرين،

وغدًا..

ستُمطرك سحابات الحنين.

مرّت سنوات وكلمات، ومازلت هُنا

تختبئ خلفَ الأحرف الصمّاء، تلك المليئة بأشياء كثيرة غيرك؛ فقط كي لا تُخبر عنك أو تُشير إليك.. لكنّك مازلت هُنا.

أكتب كلّ شيء وأذكر كلّ أحدٍ ولا أتلعثم بك.. عمدًا؛

لأنّك حرفي الصامت وجلًا، وهُم أحرفٌ منطوقة مقروءة؛ جعلتهم دثارًا أحمي به وجودَك الأبدي بداخلي.. ولا أخالهم يعرفون.

يقرؤون.. نعم يقرؤون، لكنّهم لا يعلمون..

أنّك أنت قصيدتي السّرمدية، الحقيقة الخالدة في روحي،

الباقي بقاءً لا حيلة لي معه، ولا حاجة لي أن أدفعه،

اخترت لك البقاء لمّا أكرهت على تقبُّل رحيلك والفناء.

أحكمت خطّتي ونسجت حكايتي فوق جذورك المدفونة في تُربة روحي،

يروْن ظاهر غرسك فيُعجب الناظرين،

ووحدي أبتسم وقد وضعت يدَ الوفاء على قلبي الممتلئ بك؛

فلا أكاد أُبدي إلّا بعض حنين وأنين.

***

رسالة (٣٩)

بقاءٌ بلا انتهاء

طيفُ ذكراهم، صدى أصواتهم في الروح، أثر منهم..

كيف لكلّ هذه الأشياء الباقية بلا انتهاء أن تجمع السنوات في كفّها كأنّها لم تمرّ وتُحيل الماضي حاضرًا بحرارته الأولى وتُربك القلب أمام حضورها فلا هوَ بالمستيقن أنّها ولّت، ولا هو بالمُصدّق أنّها بالفعل قد حضرت؟!

يراها رأيَ عين الروح، يكاد يمسّها من شدة التعلّق بها فهي حية ماثلة لا ذكرى راحلة.

يصنعُها واقعًا على مثال الخيال، وفي أعماقه يعلم أنّها مُحال، أحقًّا تستطيع الذّكريات أن تصنع عالمًا مليئًا بكلّ تلك التفاصيل فتسلب النفس من وجودها الآني إلى ذاك الذي كان موجودًا مُنذ زمن بعيد؟

أتفعل كلّ هذا بتلك البراعة وحدها، أم أنّنا نسمح لها بهذا يوم تركنا بيننا وبينها بابًا مفتوحًا لا نرغب طواعيةً في غلقه؛ كطفلٍ لا يأمن على نفسه إلّا بين ذراعي أمّه رغمَ رأس عمره الذي اشتعل شيبًا.. يخاف أن يكبر ويفارق ما يألفه إلى المجهول المخيف الذي لا يعرفه!

***

رسالة (٤٠)

انتظار

إنّ الانتظار الطويل هو مأساتي الكُبرى

محمد زكي عبد القادر

طولُ الانتظار يمنحنا الصبر، ويسلبنا العمر.

أوْجعني طرقُ الأحلام القديمة من خلف قضبانِ صدري؛ تحثُّني أن أحررها، فقدْ طال أسرها وفات أوانها.

تُفسد عليّ كلّ ادّعاءاتي بالثبات واتهاماتي لها بعدم الجواز، تئنّ لحبسها وإخفاء أثرها، وإن ذُكِرَت فمُرسّلةٌ كالمجاز.

صوتُها عالٍ كصوتِ الحقّ في وجهِ باطِل، مفعولٌ يستجدي فِعل فاعل..

لو أنّني أملك إبقاءك ما تركتك، فلئنْ بكيت اليوم يأسًا، فإنّي أبد الدهر انتظرتك.

وكمْ بكيت لأجل نفسي، وكم بكيتك!

انتظرتك كثيرًا جدًّا؛ وبالرغم من هذا مازلت أنتظر..

غريبٌ حقًّا أن ننتظر على أملٍ ثمّ ننتظر بلا أمل، ثمّ نزهد في الانتظار.

ثِمّ نعود لِمقاعِد الوحدة في الرّكن المنسي البعيد كي نُخبر بالصمت بدون

أحرفٍ؛ أنّ الأمر لم يكن يستحقّ عناء البقاء ومشقة ضياع العمر!

مازلت أذكُرك..

قد قيل إنّ الذاكرة ملكة مستبدّة، والقلب شعب خنوع عندما ثار يومًا؛ طالب ببقائك بدلًا من أن يتحرر منك!

***

رسالة (٤١)
بالأمس

مازلت أذكر كلّ شيء كأنّه كان بالأمس

***كأنّه*!**

أوَلم يكن بالأمس حقًّا؟!

لا أدري.. حقًّا، لم أعدْ أدري

ازدحمت عليّ أوراق الذاكرة، واختلط الحابل بالنابل فيها

فاليوم هو الأمس عندي لأنّي علقت هناك معك.. والغد ذاك الغريب الغامض؛ هو أيضًا أرجو أن يكون أمسي العامر بك.

وأخشى أن يكون يومي الخالي منك...

أو يظلّ على حاله؛ الغد الذي لا أدري هل يضمّك فيه أم يختمُ على غيابك بطابع الهجر الطويل!

للغياب ثمنٌ يا عزيزي

وأنت تأخّرت كثيرًا يا عمري.

وليسَ الشأن في التأخير،

فثمنُ الغياب كبيرٌ.. كبير،

ويحدث فيه الكثير، الكثير!

ولا يَجُبُّ الاعتذار والانكسار

ما كان مِن وجعٍ ومِن تقصير.

***

رسالة (٤٢)
اعتياد

نعتادهم...

نعتادُ رؤياهم، وسماعَ أصواتهم، ونقشَ أحرفهم

وتصبح أرواحنا بشكلٍ ما مُعلّقة بهم

تسري الحياة في الروح بوجودهم

ويتوقف نبضُ الحياة بغيابهم

ومبتدأ الحياة لم نكن نراهم

فصرْنا لا نعرف سواهم

والآن، ما عدنا كما كنّا.. رحلوا فاكتفينا بذكراهم.

***

رسالة (٤٣)
إلى الفراق

أكرهُه كثيرًا، ويُحِبّني

قلتُ له مرارًا ابتعد، لكنّه مُتمَسِّكٌ بي

حبّ من طرفٍ واحد

ورغم أنّه الطرف المُحِبّ الرّاغب في، وأنا الطرف الزاهد الراغب عنه؛

إلّا أنّه السعيد وأنا الشقيّة بمحبّته.

يعلم أنّه سيصل يومًا إليّ، وأكره أن يُدركني

مُثابِرٌ.. لا يَمَلّ المُحاولة

ولكنْ كيف أحبّه وقد حالَ بيني وبين جميع من أحببت كي يصل إلي؟

هل سيهزمني ويَبلغني؟ أم سأهزمه وأحتفظ بمن أحِبّ رغمًا عنه؟

تبًّا له.. حسنًا سأعترف أنّه الأقوى، وأنا الضعيفة أمامه.

ويبدو أنّي مُكرهة أن أحبّه، انتهى الأمر.

فازَ الفِراق؛ إذْ جعلني أختاره هذه المرة، جعلني أحِبُّه!

***

رسالة (٤٤)
مَنْسِيّ

تَقَبّل أنّك المنسيّ هناك في مكان لا يعرفه أحد، يراك فيه من لا يعرفك، ويرى منك غير حقيقتك، فأنت في مكان ونفسك في آخر، وأنت المنسيّ الذي لا يذكرك أحد.

فهل أنت ممّن يجيئون فقط كي يذهبوا؟

أم أنتَ ممّن يحفرون أثرهم في أرواحنا ويرحلون رافعين رايات المنسيّ،

وهم العُصاة على النسيان.

***

رسالة (٤٥)
إلى قلبي الأحمق

لا بأس أن تعلم كم كنت أحمقَ لسنوات كثيرة مضت من عمرك، لا بأس بهذا.

لا بأس أن تُمزّق كلّ قصاصات أحلامك الساذجة والصور التي طالما كنت تستدفئ بها من برد الأيام.

لا بأس أن تستفيقَ من حُلمك المريض الذي اخترت بإرادتك أن تظلّ معتلًّا به كلّ هذا الوقت وتأبى الشفاء إذْ كنت تظنّه في ذاته الدواء وهو الداء.

احرقْ كلّ ما فات.. لا يهمّ. انسفْ كلّ الذكريات ولا تهتمّ!

أفقْ يا قلبي الأحمق، لا بأس عليك الآن.. قد كان البأس. كلّ البأس عليك قبلَ الآن!

***

رسالة (٤٦)
رسالةٌ أخيرة

***أذكرُك ولا أنساك، ولكنّ المعالم تبهت وتزول مهْما يهادنها الزمان، والغياب يوغلُ في الغياب، وأنا تتعرّج بي دروبُ الحياة، وتجذبني القوافل السائرة. وككلّ القلوب قلبي؛ ربّما استبدّ به الضجر، وربّما هفا لأفق أرحب، وربما تعبَ من كلّ شيء*.**

حامد المالكي

أعتذرُ أنّي كنت أقول لك إنّ مَن يُحب يستحيل أن يكره، لكنّي كُنت مُخطئة..

فإنّ مَن يُحب حقًّا هو أشدّ الناس حُبًّا إن أحبّ، وهو أشدّ الناس كُرهًا لمحبوبه إن كَرِه، فبقدْر المحبة تكون الكراهية، وبقدر الأمان تكون الخيانة موجعة، وبقدْرِ ما كان مِن وصل يكون الفقد قاتلًا.

كنتُ أقول لنفسي أول الحكاية ليتني خبأتك في شراييني، فتسيل فيها أنت ودمي، فلا تُفارقني وإن أبيت، ولن تُفارقني إلا بالموت.

تبًّا لقسوتك وهجرك، لقد أفسدت لديّ قاموس الكلمات لتصير (أكرهك) إذا ما نطقتها، فهي تحمل معنى أحبّك، ولمّا زادت عنها بحرفٍ فكأنّها صارت (أحبّك جدًّا).

في تلك الرسالة، أعلنُ في كلماتها أنّي قد تخلصت من بقاياك بداخي،

تحرّرت من أسرك، والآن فقط يمكنني أن ألقي بكلّ رسائلي في بحرٍ لا أرى مداه، ولا أدرك آخره.

أغرِقها فيه واستحلف الموج ألّا يُعيدها إليّ مرة أُخرى، ولكن...

سوف أستجديه أن يقبل بأن يوصلها إليك؛ فتقرأها وتعلم؛ بأنني مع أوّل رسالة كتبتها إليك؛ كنت حقًّا أُناجيك بها، وأتقلّب بين الذكريات التي جمعتنا سويًّا.

ورسالة تلوَ أخرى صرتُ أستعذب الحديث معك، واستملحت رسائلي إليك التي صالتْ مشاعري وجالت فيها، وأنا أتابع تقلُّب القلب معها، حتى كرهتك، وكرهتها، فمزّقتها أو كدت أفعل؛ ولم أفعل.

أمس انتهينا، واليوم على وجلٍ نسير، كنّا وكنّا ولم يبقَ من الماضي إلّا نذر يسير.

نظلّ نسامح من نُحب حتّى نكرهه، فإن كرهناه فذاك وجهٌ آخر للحب، ولن ننْساه حتى يتساوى وجودُه مع عدمه، فنُذكِّر أنفسنا به، ولا نذكره!

إنّ هؤلاء الذين فقدناهم في الطريق؛ تجاوزنا عثرةَ فقْدهم، ومررنا بهوّة الأحزان حتّى صارت خلفنا.

وبقيت آخرُ منازل الطريق؛ نسيان سرمدي لا يُرجى له شفاء.

والآن، عزمت أمري هذه المرّة على نسيانك، على الرحيل عنك، والرحيل منك، ولتعلم أنّها آخر رسائلي إليك.

***

الفصلُ الثّالث من الحكاية

الماضي البعيد

يبعث اللهُ مَن يحتضنك في قلبِه كوطنٍ صغير بعيدًا عن تفاهة هذا العالم، والسّوء الذي يسكنه في كلّ زاوية

رضوى عاشور

****

(أ)

لماذا كُنت تبدو حالمًا إلى تلك الدرجة المُريعة؟!

يقولون إنّك شبيهُ النسيم، تَهبُّ سهلًا وتروح مهلًا، تبقى قليلًا وتمشي رويدًا، فإذا ما غبت يبقى أثرك في الروحِ دهرًا!

أدفنُ رأسي في أرض الحُلم علّها تُنبت واقعًا أفضل.. أو على الأقل تُخفي عنّي قليلًا بشاعة الحقيقة.

أحتاجُ إلى قلبي كي أسيرَ على درب الراحلين.. وأكمل المسير!

قدْ تسمع كلمة عابرة، تطرق سمعَك في مصادفة بطعم الحنين، تجرّ الروح مِن ناصيتها وترجع بها عددَ سنين إلى زمنٍ غير الزمان الذي أنت فيه، فلا تعرفُ إلى أيّ الزمنين تنتمي حقًّا؛ هل تبقَى حيث أنت أم تعود حيث كُنت؟!

وبالرّغم من أنّك أقدم رسائلي؛ إلّا أنّي أرجأتك إلى آخر الأمر، تعلّمت الكتابةَ معهم، ثمّ عُدت لأتمّم الأمرَ معك، إنّ كلّ شيء في هذه الحياة بقَدَر، وقدر الرسائل أن تبدأ بك شعورًا، وتُختَم بك تحريرًا.

(ب)

ما أصعبَ الكتابة عن الطيّبين الذين مرّوا في حياتنا خفافًا؛ هؤلاء الذين إذا ما هبّ نسيمُ سيرتهم العطرة على الروح قذف في جوانبها الحنين، لتسكن الرّوح إذا علمت أنّ لها مكانًا تأوي إليه من وجع السنين.

ما أصعبَ الكتابة عن الحنين للأشخاص، الأشياء، والأماكن.

عنْ تساؤلات النفس الحائرة، وهبّات النفس المُبهمة، تلك التي تلفحُنا حرارتها، لا نعلم لها سببًا ولا نرجو لها دفعًا..

إنّما تجثُم على الأنفاس مِن حيث لا ندري، فينتفض لها القلب مرارًا وتكرارًا، وتجري دموع العين لأجلها أنهارًا.

وليسَ لتلك الساعات إلّا أن تنساب معها حيثُ شاءت لا تخشي شيئًا.. وتُنفق

ـَ

الصدقات بدمع العين راضيًا مرضيًّا.

لا بأسَ بشيء من هموم تُغفر بها الزلّات وتُقال بها العثرات وتُستشرف بها البُشريات بما هو آت.

بعدما استهلكت نفسي في أوجاعٍ جديدة كتبتها، وأوجاع قديمة قرأتها، ها أنذا أستجيبُ إلى طبيبتي، وأكتب تلكَ الرسائل العائدة إلى زمنٍ بعيد.

لا أدري لمَ لمْ أكتبها في حينها، ولا أدري هل يمكنني أن أستَرِدّ كامل الإحساس بها، بذات الصدق، وذات الفقد، وذات الوجع؟!

إنّ الغاية من الكتابة أن أعيش ما لم أعشه، أُفرّغ جعبة نفسي كاملة فلا يبقى منها شيء.

أذكرُ أنّه في يوم بعيدٍ بعيد، عندما توفّي عنّي إنسان طيب خُطِبت له- قد أحسنَ ربي خلقه وخلقته- موتَ غدر فجأة؛ ألهمني ربي الصبر، وسارعت لأوراقي في ذهول أخطّ كلمات أسجّل بها على نفسي أني صبرت واحتسبت واسترجعت، وظننت حينَها أنّي على جهلي قد فقهت!

وقمتُ سريعًا ما استطعت، وألهيتُ نفسي رغمًا بما حولي فالتهيت، لأنني لم أفقه حينها أنّ الحزن الذي يستحقّه مثله لا يُنافي الصبر، وأننا كثيرًا ما نحتاجُ مساحات الحزن كي تُعيننا على الصبر فنذوق حلاوة الأجر.

أظلمُ الناسِ مَن ظلم نفسه، وأشدّ ما نظلم به أنفسنا أن نقسو عليها، أن نُخرجَها من سياق فطرتها وبشريتها..

ظنًّا منّا أننا بهذا نكبح جماحها.. نُلجمها!

والحقّ أننا بذا نئِدُ الحياة فيها بدون قصد، وكذلك نفعل بها الشيء ذاته عندما نتركها لحالها تمامًا تسوقنا كيف شاءت، وتُلقي بنا في مفازات التهلكة.

النفسُ طفلٌ عنيدٌ إن أهملنا تربيته؛ مسكينٌ إن تشدّدنا معه.

على خيطٍ رفيع نسير، يمينه هاوية إفراط، وعلى يساره هاوية تفريط..
والشأن أنْ نبقى عليه لا نُفارقه لإحدى الهاويتين، وإنْ غلبتنا الدّنيا فوقعنا؛ تمسّكنا وعُدْنا إليه، الخيط الرفيع هو صراطنا المستقيم، ذاك الذي أوّله أمر التكليف وامتداده، وما حوله الحياة بكلّ ما فيها من سعادة وشقاء، أمّا مداه وغايته: رضا الله والجنّة.

(ج)

سرّ وجَهر

أمّا قبل،

فقد كُنت سرّي

وأمّا بعد،

ستكون جهْري

ما بين قبل وبعد

وما بين سرّ وجَهْر..

أيّام عُمُرٍ تجْري.

****

رسالة (١)
مِن حقّي أن أحزن

شدَّ ما اختلفتْ عليَّ أحداث الحياة من بعدِكَ أيها الحبيب!

محمود محمد شاكر

عزيزي المُفارِق موتًا،

تلك الأحرف التي نكتبها ونقصدُ بها التَّنْفِيسِ عَنْ الهُمُومِ؛ ما هي إلّا توثيق لتلك الأوجاع، ونقشٌ دائم لها على جدران الذاكرة، وللذكرى عبق يعرفه صاحبُها، تُثير في نفسِه رسالات مُتجددة الوصول ما بقي النقش وعبقُه!

لم أرغَم يومًا على كتابة رسالة، أو كتابة أيّ شيء، كُنت دائمًا أكتب عندما أرغب في أنْ أكتب، واليوم أنا أكتبُ إليك رسالة مُرغمة.. لأنّ طبيبتي طلبت منّي أن أفعل.

لعلّها فعلت ذلك لأنّها رأتْ بقاياك المخبّأة في داخلي، ربّما أرادت بذلك أن تُحرِّرني منك، هي مهمّتها كطبيبة نفسية على كلّ حال، أرادت أن تُخلّصني من عبْء الذكريات، لقد أرادت لي الصدق، وكم كذبتُ أنا على الناس وعلى نفسي، بقصدٍ ربّما، أو بغير قصدٍ.. لا أدري.

أرادتْ أن تُحرِّرني من أسرٍ غيرِ مرئي لأحدٍ، ويخفى عليّ مثلهم، أسر ارتضيتُ لنفسي البقاء تحت أثقاله وخلف أسواره.

أرادتْ لي الحُزن؛ هل تُصدِّق هذا؟!

أنا التي جئتها أبحثُ عن السعادة، وجدتها تُخبرني أن شفائي هو أن أحزن، أسمحَ لنفسي أن تحزنَ عليك، كما تستحقّ أنت، وكما أستحقّ أنا.

لقد حدّثتني حديثًا عجيبًا؛ أخبرتني أنّ الحُزن من حقّي، أنا التي ظننت أنه ليسَ من حقّي أن أحزن، أو أفرح، أو أعيش!

أكتبُ كلمات هذه الرسالة، التي لن تقرأها أبدًا، لا أقول ذلك يأسًا من مهاجرٍ أو مفارق، وإنّما أقولها حقًّا لأنّك فارقتَ الحياة، والموتى يا عزيزي لا يرجعون، ولا يقرؤون.

هل تذكر البحر؟

أجلسُ أمامه الآن وأنا أكتبُ لك، وأسرح بخيالي في يومٍ بعيدٍ جلسنا سويًّا على البحر، في منطقة (جليم)، في مكان بالقرب من المكان الذي أجلس فيه الآن، غير أنّ الأشياء والأماكن- وكلّ شيء- قد تغيّر كثيرًا من بعدك.

في ذلك اليوم البعيد، البارد، إذ كُنّا في فصل الشتاء، وكنت ترتدي جاكت أسودَ مصنوعًا من الجلد، ومددت يدك بلُطف وخفّةِ ظِلٍّ عرفتك بها، ثمّ أخرجتَ من جيبك وردة حمراء بلوْن الحُب، ولوْن الدماء التي سالت على يدك يوم الرحيل.

كُنت أحبّ الورد، وكنت تعلم ذلك، فتجلب لي بدون طلب ما أُحب، مازلت أحِبّ الورد، ولا أحد يعلم حتّى أخبره، ولا أحد يهتمّ وإن أخبرته، ولا أحد يجلبُه لي إلّا وهو حاملٌ مع باقة أزهاره باقةً من وجع.

إنّ ذاكرة الحنين هي أحدُ أشدّ أعدائك الكامن بين جنبيك، ولا يكفّ عن شنّ غاراته عليك كلّ حين بلا هوادة!

طالما أنّني قرّرت أن أكتب لك، ورغم ما أُلاقيه من صعوبة وخوفٍ ووجل، فليكن.. سأكتب لك، وأحكي عن كلّ شيء، كلّ شيء حدث مُنذ أن فارقتني.

***

رسالة (٢)
عن أبي

عزيزي المُفارق موتًا،

لا تتعجّب مِن أنّي سأبدأ حكايتي معك بحديثٍ عن أبي أبثُّه إليك، كلاكما فارقَ الدنيا، وأوّل لقائي بك كان في المشفى حيث كان مكث أبوانا للعلاج، فأبي على كلّ حال دونَ أن يقصد كان سببًا في معرفتي بك، فلا بأس أن تُشاركني رسالةً عنه، خاصّة أنْ وافق كتابتها يوم ميلاده، رحمه الله، ورحمك!

لا أدري حقًّا كيف سيُطاوعني قلمي أن أكتُب عن الحبيب؟!

وأكتُب عن ذلك اليوم..

يومَ أن مات أبي رحمه الله.

في مثل يومنا هذا مُنذ سنوات طوال مضت، وُلِد أبي..

في السابع من شهر مارس عام ١٩٤٧.

لو كان حيًّا بيننا الآن لمازحته قائلة:

كبرت يا أبي يا ((عَلِي))، كبرت يا حبيبي وشابَ شعرُ رأسك وشاربك ولحيتك..

وكان حسبي أن ألقي برأسي عندَه أقبّل شقوق كفيه وتجاعيدها، ليربّت عليّ، ويُخفّف عنّي ويُهدّئ من روعي...

أمَا وأنّ هذا الآن محضُ خيال لا أصل له؛ فقد مات أبي مُنذ سنوات.

يومًا ما، مُنذ سنواتٍ كثيرة مضت..

أرسل أبي- رحمه الله، وغفر له- إحدى رسائله إليّ..

كُنت صغيرة جدًّا، ربّما ثلاثة أو أربعة أعوام

علّمني حُبّ الرسائل وحبّه وأمّي

علّمني دون أن يقصد أن أكتب ما أشعر به

وأخبر مَن أحبّهم أنّي أفعل

ما يوجعني في قلبي أنّه لم يُدرك ما تمنّى، ولكنْ ما عند الله خير وأبقى.

أحنّ إليه بقدر حنيني لعامٍ حجّ فيه هو وأمي، وكنتُ وحدي معهما، وكان أخي الأكبر مع جدتي في مصر.

حججتُ ولم يتجاوز عمري الستّة أشهر، لكنّه أذاقني طعم المناسك كلها، كنتُ معهما في الطواف والسعي والوقوف، وعند قبر المصطفى صلوات ربي وسلامُه عليه، فكأني منذُ ذاك العام أحجّ كلّ عام بالروحِ شوقًا، روح بقت وسافر الجسد ولمّا يلحق بها بعد.

لنْ تلتئم الروح حتى تعود سيرتها الأولى يحملها الجسد؛ أطوف حول السكن الذي عرفته أوّل عهدي بالحياة، ولا قرار حتّى أعود.

فاللهمّ مردًّا جميلًا إلى هناك...

رحمَ الله أبي رحمة واسعة، وطيّب الله ثراه، وأعلى درجته في الجنة حتى يبلغ الفردوسَ الأعلى.. حتّى يرضى!

مازلت أذكر يومَ سقط مريضًا وذهب إلى المشفى.. يوم خرج من بيتنا وكان حزينًا أشدّ الحُزن أن لم يكن واقفًا على قدميه.

أيامٌ قليلة مرّت عليه قبلَ وفاته قضاها بين جُدران المشفى الباردة..

مازلتُ أذكر ليلة وفاته.. أذكر التفاصيل، كلّ شيء وكأنّه كان بالأمس القريب!

كان بينَ حياة وموت؛ مُدبرًا عن الدنيا، مقبلًا على الآخرة.. ولم نكن نعلم أنّها ليلته الأخيرة معنا.

لكنّي أذكر أنّي تركتهم جميعًا وانفردتُ به، أمسكت بكفّيه الغاليتين بين يديّ..

أمسكتُ بكفّي العطاء وسنوات الشقاء.. تلك التي حملتني صغيرة بعد أن فاضَ شوق صاحبها إليّ.

كان يتوقُ إلى إنجاب البنات، فقد رُزِق أخوة ولم تكن له أخوات، فرزقه الله بي بعدَ طول انتظار، ابنة واحدة على ولدين.

ومِن فرط سعادته ظلّ يجول في حيرة بين الأسماء، حتى ابتدرته أمّي الحبيبة باسْمي *شيماء*.

أذيّل كلّ حرف أكتبه بـ شيماء بنت علي.

شرفُ الانتماء إليك يا أبي الحبيب...

يا مَن كُنت سَنَدي، ويوم رحلت.. انفصمت عُراي وكُسِرَ ظهري!

مازلتُ أذكر حديث الكفّ للكفّ بلغة الصمت..

وهمسي إليك يا أبتِ وأنتَ في غيبوبة الموت.

كنتُ أحدّثك من خلف ستار الدمع.. وأعلمُ يقينًا أنّك حتمًا ستسمعني..

لا أدري كيف قُذِف في قلبي أنّه حديثُنا الأخير، كان قلبي يُقاوم الفكرة ويرفضها ويعلم أنّها حقّ يقين!

سَلّمتُ عليك، وما وددت أن أترك الكف..

أسررتُ إليك بسرّ أنت تعلمه؛ أنّي *أحبك*

يا أبتِ.. هلّا بقيت قليلًا فنُدرك شيئًا من الذي قد فات...

أرتقُ التقصيرَ قبل أن يُخبروني أنْ يا بُنية اصبري.. لقد مات!!

مهلًا.. مهلًا أبي.. أراحل أنت؟!

همستْ أعماقي إليك بالسؤال وأنا أتشبث بكفِّ الحبيب:

سترحل يا أبي؟!

مَن ذا الذي سَيشُد عضدي؟!

أأكون عروسًا في غيابِك؟!

ألنْ تجلس معه.. تُصاحبه.. وتُحذِّرُه؟

ستتركني وحيدة؟!

لا أدري كيف واتتني الشجاعة أن أقول له حينها...

*يا أبتِ، إن كنت ولا بُدّ مفارقًا؛ فانتظرني على باب الجنّة..
لا تدخل بدوني.. الكفّ بالكفِّ يا أبي.. الكفّ بالكفّ*.
بكيتُ كثيرًا ولا عِلم لي أنّه كان آخر عهدي بكفِ الحبيب..
وأوّلُ عهدي، بِاليَتَمُ.

***

رسالة (٣)
رسالةُ عَتَبٍ طويلة

عزيزي المُفارِق موتًا،

دعْني بادئ ذي بدء أعتبُ عليك، ألومك لأنّك كذبت عليّ، نعم كذبت؛ هل نسيت؟

لقدْ قلت لي كثيرًا: غدًا سيكون أجملَ من اليوم، ولم تُخبرني أنّك ستموت فجأة وتتركني!

لماذا كذبت عليّ؟

أعرف أنّك لم تكن تعرف، لكنْ أخالك لم تتصوّر يومًا كيف يقتلنا النقيض..

أخالُك لم تتصوّر ولم ترغبْ لي في كلّ هذا الألم، أن أصدِّق أن الغد سيكون أفضل، فيأتي الغدُ ويفجعني بموتك.. هل كان موتك هو ذاك الأفضل الذي قصدت؟!

في يوم رحيلك أعدتني إلى المنزل سيرًا على الأقدام، لطالما أحببت السيرَ لمسافاتٍ طويلة، المشي من أعجب منافذ الرّوح المُطلّة على العالم، جسر يمتدّ بين عالمنا الداخلي والخارجي، تسير عندما تسير وأنت ترى أفكارك ماثلةً أمامك على وجوه المارّةِ العابرين، وعلى صفحات الطرق وخطوطِ الأشجار والأبنية والسيّارات.

يراك مَن يراك فيظنُّك إنّما تقطع الطريق فحسب، والحقّ أنّك بخطواتك تلك تُمرِّر شريطَ الذكريات أمام عينيك، وتُفكّر في آلاف المواقف، وتتذكّر الكثير من العِبارات، وترزح تحتَ ثقل الهموم التي لا تظهر عليك، المشي يمتصّ مشاعرَنا القلقة وأحزاننا الصامتة وهمومنا الجاثمة كإسفنجة جافّة قد طال أمدُ ظمئها للماء.

وها أنذا أهربُ كعادتي من الحديث عنك، فأتحدّث عن السير بدلًا من أن أذكرَ كيف كان السيرُ معك، لقد كُنت رفيقًا حُلوًا لمسافات السيرِ الطويلة..

أتذكر؟!

سِرْنا طويلًا في تلك الليلة، ليلتنا الأخيرة معًا، والأخيرة لك في هذه الحياة الدّنيا، أوصلتني للبيت، وتحدّثنا طويلًا في كلّ شيء، وأيِّ شيء، وكأنّك كنت تُفرغ جُعبة الحديث خاصتك، تُكرمني بكلماتك الأخيرة في حديثك العذب الطويل الجميل، تُبقي لي ذكرياتٍ لا تُنسى؛ أنّ يومًا ما أحبّني رجلٌ جميل الخُلُق والخلقة، قد جمّل الله قلبه وقالبه، وجعله زينة بين الرجال، فاختارني من بين النساء كي أكون رفيقته، ورحل مُخلّفًا وراءه فراغًا ما استطاع أحد أن يملأه.

عِندَ المنزل، قمت بتوديعي، ولوّحت لي مُفارقًا، ولم تصعد معي لتحيّة أمّي، لم تبقَ طويلًا بل فارقت مُسرعًا لتلحق بموعدك مع الرحيل عن دُنيانا، وتتركني وحدي بدون أدنى فكرة عمّا ينبغي عليّ فعله كي أواصل المسير، وأعيش وحدي حياة حلمنا بها سويًّا.. ماذا أفعل بها وحدي؟!

هل أخبرتك أنّي استرجعت؟!

بالطّبع لم أُخبرك، فأنا لم أكتبْ لك من قبل، دعني الآن أفعل، فإنّ الذكريات رفاقٌ يشدُّ بعدهم بعضًا، ويأبى الواحد منهم إن ذكرته إلّا أن يُذكِّرك بأخيه.

سأُخبرك كيف استرجعت لعلّ هذا يُهوّن عليك، كما احتسبت عند الله أن يُهوِّن الاسترجاع عليّ في ذلك الحين البعيد.

عندما تركتك في تلك الليلة وصعدتُ إلى المنزل، غيّرت ملابسي، وارتديت ملابسَ تصلح للنوم، وجلست مع أمّي، وشاهدنا التلفاز، لا أذكر تحديدًا ماذا كنّا نُشاهد، لكنّي أذكر أنّه كان عرضًا مُضحِكًا، وضحكنا، يا لقسوتنا وغفلتنا!

هاتفتني عندما عدتَ إلى منزلك، كما عاهدتني أن تفعل، كنت دائم الوفاء بالعهود، لم تخنْ وعدًا قطعته على نفسك إلّا واحدًا؛ وَعْدَك بالبقاء.. وبأن الغد سوف يُصبح أجمل.

طمأنتني على وصولك، وسمعت منك آخرَ كلماتٍ لي عندك، سلّمتني الأمانةَ كاملة لا نقصَ فيها.. كان صوتك أحلى ما يكون.. أدفأ ما يكون.. أعذب ما يكون..

لقد كان صوتك حلوًا طوالَ الوقت، به نبرة عابثة ضاحكة، لا تُلقِ للأحزان بالًا.

أغلقتُ الهاتف معك، ومضيت عنك إلى جوارِ أمّي، ومضيتَ أنت عنّي إلى جوارِ ربّك جلّ في عُلاه.

عندما طلبتْ منّي الطبيبة الكتابة إليك، ظننت أنّ الأمر سيكون سهلًا، وتهرّبت من الفعل كثيرًا، ومن جلساتها أكثر، ظننت أنني عندما أضع القلم على الورقة ستتدفّق الكلمات من قلمي وأنهي مهمّتي سريعًا، لكن أيًّا من هذا المكتوب لم يحدث، الأمر كان أشقّ ممّا تصوّرت بكثير...

لم تتدفّق الكلمات من قلمي، لم أقبل على الأمر، بل خفته، تهرّبت منه، وتلعثمتِ الكلمات على شفاه الحزن، وتطايرت الكلمات عن فوّهة القلم، فكان صمتي أكثرَ تعبيرًا من الكلمات، ولكن من ذا الذي يمكنه أن يقرأ الصمت؟

أعترفُ لك بأنني أخبرت الجميع بعدك أنّني بخير، وأنني لم أُحب في حياتي أحدًا قط، لم أتعمّد قولَ هذا، وقد ترى قولي هذا جحودًا لما كان بيننا وكفرانًا لعشرتك الطيبة، لكنّي صدقًا لا أدري؛ هل أحببتك حقًّا؟

لقدْ توكّأت على عصا محبّتك عندما تُوفّي أبي، فأنت كنت هناك بجوار أبيك المريض في ذات المستشفى التي حوت جسد أبي في أيامه الأخيرة، وعندما مات أبي بكيتُه طويلًا وجلستُ على سريره أجهش ببكاءٍ يكاد يفلق كبدي، وكنت أنتَ هناك ترقبني بإشفاق، كنت أترنّح من الحُزن فاستندت عليك، وبدَا لي طيلة خطبتنا أنني أحبّك حقًّا، وأنّك تُحبّني مثلما أُحبّك، ولا أدري هل أحببتك لأنّني كنت أحتاجك، أم كُنت أحتاج وجودك لأنني أحببتك.

***

رسالة (٤)
الموتى أوفياء

مَن أنت؟ وماذا كنت؟ أكنت وحيًا من فيض شاعريتي المكتظة، وطيفًا من أطيافِ شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية؟

مصطفى صادق الرافعي

عزيزي المُفارِق موتًا،

عندما يضيق بي الحال، وتتعدّد مرّات الخُذلان، وتكثر الأوجاع.. أتذكّرك.

أحتمي بواحة حُبّك التي سكنتها، وأُطّيب روحي بأنّك لم تخذلني، وأنّك لم ترحلْ عنّي بملكك وإرادتك.

حتّى إذا ما أوشكتْ نفسي على السّكون والهدأة، أتتني ريحٌ عاصفٌ تقتلح روحي، وتتّهم إخلاصك، وتوحي لي بأنّك لو بقيت حيًّا كنت ستفتتح بوابة عالم الخذلان بنفسك، ستكون أوّل الراحلين عنّي بكامل رغبتك، ستكون أوّل مَن يشقّ نهر الدمع على وجنتيّ، دمعًا يجري وراءك لأنّك رحلت عنّي إلى أخرى، أو إلى شأن آخر، لا إلى الدار الآخرة كما قدّر الله لك.

هل كنت ستخذلني حقًّا لو بقيت حيًّا؟

بالله أجبْ إنِ استطعت، وإن أمكن زُرني في منامي، وأطفئ نار قلقي، وربّتْ على كتف روحي، وأخبرني أنّك لم تكنْ لِتتركني، وأنّ الخُذلان لم يخطر يومًا لك ببال، وأنّك لم تكن لتُبرّر الرحيل عنّي مهما ضاق بك الحال، وأنّ الذي حال

بيني وبينك لا نملك دفعه، وابتلاء لا نستطيع رفعه إلّا بتمام الرضا وكامل التسليم.

هل تستطيع مسامحتي؟

لأنّني أتّهمك بما أنت مُبرّأٌ منه، لقد أعمى الوجع قلبي وأدمع عيناي التي طالما أبصرتا شفقتك عليّ، وقلبي الذي أحسَّ في يومٍ بعيدٍ حُبّك لي.

لقد فارقت الدُنيا على حُبّي، والمرء على ما مات عليه، فارقت ودبلتي في أصبعك، قد سالت عليها دماؤك.

هل تعلم أنّي بقيت حينًا من الدهر أحمل الخاتم الذهبي المنقوش بأحرف اسمك حول خنصري الأيمن، بينما أحمل في نفس الوقت خاتمك الفضّي المنقوش بأحرف اسمي حول خنصري الأيسر؟!

ووددت لو لم أخلعهما أبدًا؛ صدقني، لكنّي فعلت!

***

رسالة (٥)
أخافُ الوحدة

***يا وحدتي جئت كي أنسى وهاأنذا**

مازلت أسمع أصداءً وأصواتًا

مهْما تصاممتُ عنها فهي هاتفة..

يا أيّها الهارب المسكين هيهاتا*

إبراهيم ناجي

إنّ خوف الوحدة قديم في نفسي، فعندما مات أبي رحمه الله، انتباتني أوجاع الوحدة بفجاجة مفزعة، وتهدّم سور الأمان بداخلي، وداريت الأمر كعادتي، أو كما تعلّمت أن أفعل مُنذ صغري، لا ينبغي عليّ أن أتألّم.. هكذا تعلّمت، وهكذا عشت العمر أُطبّق لا إراديًّا ما تعلّمته.

خوفُ الوحدة دفعني إليك، ولا تنزعج لقولي هذا، فليس في الأمر إهانة لشخصِك الجميل، لكنّها الحقيقة، وقد وعدتك بقولِ الحقيقة كُلّها بدون مداراة أو تزييف، أنت على كلّ حال في دار الحقّ، ولا يليق بك إلّا أن يُقال لك الحقّ.

عرفت الآن، وبعد سنواتٍ طوال من رحيلك، أنني ألقيت بكلّ خوفي وفزعي في أحضان معرفتك، ولم يكن الأمرُ مصادفة عشوائية، بل كان قدرًا مقدورًا عليّ وعليك.

كُنّا في فصل الشتاء، عندما أغلقت جميع نوافذي وأوقدت مدفأتي وتدّثرت

بكلّ غطاء توسَمت فيه أن يخفف قرصة البرد عن أوصالي، ولمّا وجدت أن البردَ مقيم بأركاني يأبى الرحيل عرفت أن ارتعاشة القلب لا يُداويها إلّا دفء الوصل وسكون الروح لروحِها، فقد أُصيبت الروح ببرد الفقد!

كنت أمامي هناك حين أفلتّ كفّ أبي رغمًا عنّي، عندما رحل مخلِّفًا صقيعًا في روحي لا تُدفئه شموس الكون جميعها، كنتُ أضعف من أن أتحمّل تلك البرودة القاسية، أخبرتك مرّة واصفة حالي:

أشعر أنّ داخلي يرتعش، أرتجف من شدّة البرد وليس ثمّة دثار يُجدي مع كلّ هذا الوجع.

تلك الرّجفة التي لا يُجدي معها الدفء؛ رجفة البرد هي أم رجفة الفقد؟!

لا أدري هل كنت سأرتبط بك لو أدركت حينها هذا الوجع؟ هل كنت سأتريّث في قراري بقبول خطبتك لي؛ كي لا أفعل ذلك تحت تأثير الوجع؟!

مرّة أخرى يبدو كلامي لك جارحًا، وأنا لا أقصد ذلك، لكنّك تُسدي لي معروفًا عظيمًا لو تعلم، فأنا أجترّ أحزاني معك، وأعيش الأحداث جميعها مرّة أخرى، أكرِّر الألم؛ لكن بغرض الشفاء منه هذه المرّة، أحاول أن أغلِق الجرح غلقًا نظيفًا كي يبرأ، أريد أن أشفى بك منك، وأنا أعلم يقينًا أنّك ترغب في أنْ أكون بخير، فالحبّ على حقيقته سعيٌ أن يكون من نُحب بخير.

فلنتّفق إذًا أنّ وحدتى ساقتني إليك، ما كنت أتصوّر حينها أن تفجأني برحيلك، فأعود بعدك أكثر وحدة من ذي قبل.

لطالما تلحّفت بالنسيان؛ فبردً الفقد قارس.

وكنت أرتعدُ وروحي بغيةَ استجلاب دفء موهوم؛ لعلّنا نسكن قليلًا، فننسى البردَ وننساك.

دثارُ النّسيان كاذب، وأنا.. وروحي نستجديه يصدّقنا ويُنسينا فيصرفنا بالذكرى الحارة ويُرديناً.

سنزهدُ بضاعة النسيان، لن ننساك ولنْ نسعى، فكيف ننفق العمر وأيامه كي ننسى أجمل ما كان فيه؟!

لقدْ صارت وحدتي بعدك أشدّ ضراوة من قبل، صارت أكثر جوعًا لأن تمتلئ برفْقةٍ أخرى، صرت أقلّ وعيًا بنوازع الوحدة المخيفة ووجودها الشاذ، وأثرها المُرعب في نفسي، لقد ساقتني إليك يومًا، ثمّ ساقتني إليهم.

لا تسلْني عنهم، فرسائلي عنهم إليهم، ورسائلي إليك عنك أنت وحدك.

ويْكأنّني عرفت الآن فقط أصلَ حكايتي، وتجلّى وجه الوحدة القبيح أمامي الآن بدون حياء، لكنّك رحت عنّي واضعًا نقطة في آخر سطرٍ من حكايتنا، ولا

تدري عن تلك الحكايات المبتورة التي أتت بعدك، وألقت بالوحدة في وجهي مرّات ومرّات.

عفوًا؛ لن أُخبرك عنها، وحسبك منّي حكايتي معك، ورسائلي إليك.

***

رسالة (٦)

رسالةٌ لطيفة

***الذين تُحبّهم يبقى أثرهم مستمرًّا فينا وإن غابوا*.**

أيمن العتوم من رواية (اسمه أحمد)

قرأتُ اليوم رسالة لطيفة، كتبتْها إحدى الفتيات الرقيقات لخطيبها الذي عقد عليها للتّو، ونشرتها في موقعٍ من مواقع التواصل، ولا تسلْني يا عزيزي عن مواقع التواصل، فهي شرٌّ قدً عافاك الله منه إذْ رحلت قبل أن تُدرك عنها شيئًا.

تحدّثت الفتاة في لغة عذبةٍ عن جمال العلاقة بينها وبين خطيبها، عن هذا اللّطف الذي يحوطهما، والذي أرجو أن يُديمه الله عليهما.

ذكّرني كلّ هذا اللُّطف بك، فقدْ كنت يا عزيزي بذلك اللطف وزيادة، بل إنني لو أردتُ وصفك وصفًا مختصرًا مليئًا بكلّ المعاني التي عرفتها معك؛ فسوف أقول:

(كان رجلًا لطيفًا) باسمَ المُحيّا، طيب المعشر، حلو اللسان، هكذا كنت، وعلى هذا رحلت، ومن أجل هذا أبقيت أثرًا لا يزول.

اللُّطف خُلُقٌ رقيق، لكنّه يترك أثرًا عميقًا كأثر الفراشة، ولقد كنت في حياتي كفراشةٍ عابرة في هذه الحياة الدّنيا.

يقول الشاعر محمود درويش:

أثرُ الفراشة لا يُرَى

أثرُ الفراشة لا يزول

هوَ جاذبيّةُ غامضٍ

يستدرج المعنى، ويرحلُ

حين يتَّضحُ السبيل

هوَ خفَّةُ الأبديِّ في اليوميّ

أشواقٌ إلى أعلى

وإشراقٌ جميل

هوَ شامَةٌ في الضوء تومئ

حين يرشدنا إلى الكلماتِ

باطنُنا الدليل

هوَ مثل أُغنية تحاولُ

أنْ تقول، وتكتفي

بالاقتباس من الظلالِ

ولا تقول.

أثرُ الفراشة لا يُرَى

أثرُ الفراشة لا يزول!

ربّاه، كم يليق وصفُه بك!!

لقد كنت كفراشةٍ مرّت في حياتي، أيقظت فيها معاني اللطف والودّ، بخفّة وجودك في أيامٍ قليلة جمعتنا، رأيتك فيها، كشمسٍ أشرقت بشكلٍ جميل، سُرعان ما استحييت واختفت خلف الغيوم.. وغيّبها الرحيل.

أومأت إليّ بلُطفك المعهود، وأخبرتني أنّ الغد يحمل لنا الأفراح، فصبر جميل.

مثل أغنية كنتَ تملأ الكون من حولي، عرفتك باسمًا.. ضاحكًا، وكأنّك كنت في ذاتك الدليل.

أخبرتني أنّ الحياة- وإن أوجعت صحراؤها أرواحنا- لا بُدّ يومًا أن يهبُّ علينا منها نسيمٌ عليل.

صدقتَ في وعدك، وصدقت في أثرك، فأثرُ الفراشة وإن لم يُرَ؛ فإنّه يا عزيزي أبدًا لا يزول.

***

رسالة (٧)

نسيت

عزيزي المُفارِق موتًا،

لقد نسيتَ أن تودّعني قبل أن ترحل..

نسيتَ أن تُخبرِني عندما رحلت ما الذي ينبغي علي فعله في وحدتي وغيابك، نسيت أن تتركَ لي خريطة الحاجات وتفاصيلها، نسيت أن تُخبرني كيف أتمّ الأشياءَ من بعدك، تلك التي بدأناها سويًّا.

لقد نسيت أنْ تُجيبني عن الأسئلةِ التي ظلّت مُعلّقة بيننا..

نسيتَ أن تسقي غرسَ أمانينا، وتركت لي عبء الجميع، ودهشة الصدمة التي

خلّفها رحيلٌ بلا وداع.

يجعلنا الحزنُ أحيانًا ننغلق على أنفسنا وننكمش انكماش الجنين، نجمع أطرافنا ونتكوّر على هيئة العائدِ إلى مهده الأوّل في رحم أمّه الذي لم يعرف فيه إلّا عطاءها السرمدي الواصل إليه من حبلٍ سرّي يمدّه بكل أسباب الحُبّ والأمان، نسترجع تلك الهيئة كي نقلّل من الحجم الذي نُشكله في فراغ الحياة المُزعج، ننكمش لعلّ حظّنا من الألم ينكمش معنا، ونتكوّر علّنا نتفادى أوجاعًا لا تفارقنا، نجمع أطرافنا كي نربّت على الكتف اليُسرى بكفّنا الأيمن، ونربّت على كتفنا الأيمن بالكفّ الأيسر، ونجعل الدموع مُنسابة في الدّاخل تجري على الوجنتين حتى يجفّ نبعُها دون أن تمسحها أيادٍ خارجية لعلّها المُتسببة فيها.

نفعل كلّ هذا كي نُذكر أنفسنا أننا جئنا إلى الدُنيا فُرادى وحيدين وهكذا سنفارقها، فلم يُحزننا أن نعيشها على الهيئة التي جئناها بها ونفارقها عليها؟!

***

رسالة (٨)

طفولةٌ وتفاصيل صغيرة

كلّ شيء نعتقد أنّنا نسيناه يتوطن أعماقنا في ذلك الصندوق الذي ما إن يفتح حتّى تتغير كلّ قوانين الطبيعة

سعود السنعوسي من رواية (ساق البامبو)

أتذكّر كيف كُنّا نشبه الأطفال، كُنّا نضحك كأن لا شيء في هذه الدّنيا يُبكينا، ثمّ نبكي كأنّنا لم نضحك في يومٍ من الأيام.

وكنّا نتخاصم- أيضًا- كالأطفال، ونقول بأنّ الخصام سيبقى بيننا حتى آخر العمر، وكالأطفال أيضًا يكون عمرُ خصامنا قصيرًا؛ بضع دقائق معدودات أو أقلّ، فتعود دُنيانا بعدَ ذلك صافية مثل سماوات الطفولة البريئة الطاهرة، ومثل ما كان بيننا.

تفاصيلُ صغيرة.. كثيرة

تلك التي نحملها في قلوبنا بريئة، ونُخبئها في كفوفنا وراء ظهورنا.

نحملُها في جفون العين لمعة.. ودمعة

في أشياء لا يراها غيرنا

نلملمُ فيها كلّ حبّ ونُهديه لغيرنا، فلقد علمنا أنّ السعادة تكمن في طيّات تلك التفاصيل الصغيرة.

ولقدْ علمنا أنّنا إذا ما أهديناها سنذوقُ يومًا سُكّر حلاوتها في ضحكاتهم

وأرواحهم، وفي تفاصيلهم الصغيرة.. الكثيرة!
أشياء صغيرة كُنّا نشتاقها..
ورفعنا أكفّ الضراعة بها
أمنياتنا التي أعيتْنا، وهفت أرواحنا لها
تلك التي حملناها عمرًا بأكمله لأننا كُنّا نحتاجها
كمْ رجوناها بريئة بسيطة، في تفاصيل صغيرة
هي أمانةُ الطفولة المودعة في أرواحنا، وهي التي تُهدهد قلوبنا بالصبر.
تربّت على أرواحنا بالوعد، أنّ للصابرين جزاءًا في الآخرة، ولهم في الدنيا سعادة مثلها.
وإذْ تأذنّ ربّنا بالفرج، تحققّت الأمنيات وكأنّها للتّو وليدة دعوة مشتاقة.
بدأت بـ *يا ليتها* وخُتمت بـ *لعلّها*!
نمْنا ونحن نحلمُ ببراءة كالأطفال، فاستيقظنا على الواقِع فزعًا كالكبار.

***

رسالة (٩)
وصفٌ

عزيزي المُفارِق موتًا،
لو شئتُ أنْ أصفَك أو أصفَ نفسي عندما التقينا ما استطعت الوصف بدقّة، فهذا شأنٌ بعيد بُعد الصّغَر، وبُعد البراءة، وبُعد الأحلام الرقيقة، حيث خيوط الرّوح الدقيقة اللامعة؛ تلك التي نسجتها أيّام البراءة الأولى على بوابة الروح، فبقيتْ شاهدة عليها، مشيرة إليها، مستمسكة بها في مواجهة عواصف الأيّام العاتية، حادّة كالسيف، رقيقة كنسمة باردة في حرِّ الصيف، اجتهدنا كثيرًا كي نُدركها وما نحنُ ببالغيها، كان يعترينا فضولٌ ممّا وراء أرواحنا من أسرارٍ تكاد تُخفيها، جميلة كما هي، قويّة واهية، وسرّها خبيئة لمّا أسرّتها شاء خالقُ جمال الروح أن يُبديها.
هكذا كنتَ أنت، ومثلك كُنتُ أنا، والدنيا حملت الكثير في جُعبتها لنا...
فانْتهينا قبل أن نبدأ، ولنْ أقول ليتنا، أو لعلّنا، لكنّا رضينا بقسمة الله لنا.

***

رسالة (١٠)
أ

أسود

عزيزي المُفارِق موتًا،

لقدْ عرفتني نابضةً بالحياة، والأمل، والألوان، وتركتني بلا حياة.. بلا أمل، بلا لون!

لماذا أصبح كلّ شيء باللون الأسود؟!

أسود بلوْن أيامي الحزينة..

بلوْن ماضٍ قاتم أشبه بذاكرة مفقودة.. ذاكرة فقدت كلّ ماضيها مُتعمدة، ليتحوّل كلّ ما فات بلون أسود مظلم لا تفاصيل فيه.

أسود بلوْن ليل بهيم لا نهار له..

لوْن الظلام أسود قديم...

مُنذ متى أصبح لونُ النهارِ كالليلِ أسود؟!

متى تغيّرت الأشياء؟ أين اختفت كلّ الألوان؟

علبة ألواني سوداء

لا أحمر الورود، ولا أخضر المروج

أينَ الأبيض الصافي بلون براءتي الحمقاء؟

لماذا أصبحت كلّ ألواني.. كلّها سوداء؟

بأيّ لون ألوّن السماء؟

مضطرّة أنا، إنْ رسمتُ يومًا سماءً لأحلامي أن تكون سوداء.

لا أزرق للسماء، ولا أخضر للزروع، ولا اشتعال لباقة الورد الحمراء.

كيف أرسمُ أحلامي الآن، أم أنّ الأسود سيتكفل بالمهمّة!

سيلوِّن حياتي كلّها بألوان سوداء، لا بأس أن تتساوى كلّ الأشياء.

أسودٌ بلوْن سُرادق عزاء..

دموع في المآقي لا تجف.. وجوهٌ جافة لا تعرف الابتسام.

دموعٌ سوداء بلوْن الظلم.. بلوْن القهر.. بلوْن الحزن..

ألم تكنِ الدّموع يومًا شفافة كالضياء؟

كيف والعينُ جرداء لا كُحل فيها.. مِن أين لها بدموع سوداء؟

لوْن أنيق.. لوْن فريد
لوْن الخيل.. لوْن الليل.. ولوْن عباءتي السوداء.
وسحرُ ذلك الوسيم في بدلته يوم عُرسه يأتي بغموضه وحلم سعادته يسرق عروسَه لعالم ملوّن، فيظلّ مميزًا بسواده بين الألوان.
اختفت الأناقة.. وانعدم التفرّد...
كلّ شيء صار أسود
سرّ أناقتك يا عزيزي، يا لوْني الأسود
هوَ مجاورتك لألواني الأخرى.
الآن، وقد لوّنت حياتي- كلّ حياتي- بلوْنك القاتم الحزين..
لم تعدْ ساحرًا كما كُنت؛
بل مقيتًا كريهًا..
أذهبت معك كلّ تفاصيلي الصغيرة..
لم أعدْ أُميّز الأشياء؛ فكلّها سوداء.
مرارةٌ لا تُفارق حلقي.. تليق بسوادك.
ولا أدري.. لماذا الحُزن دومًا بهذه البلاغة؟
ولماذا يضع بصمته على كلّ الأشياء؟
ويُلقي عليها كلّها- جميعها.. بتفاصيلها- ظلاله السوداء؟!

***

رسالة (١١)
اعتراف

لم أزرْ قبرك يومًا إلّا مرة واحدة
بعدَ وفاتك بأيّام
رجوتُ أمّي أن تسمح لي أن أفعل
لم تستطع الرفض.
أمّا أنا.. فذهبت، ولكن لم أذهب كي أزورَك كما ظنّت أمي
ذهبتُ كي أرى قبرَك، واسمك المكتوب عليه

لم أصدّق أنّك متّ حقًا حتى فعلت.. حتّى زرتك وقرأت اسمك مكتوبًا...

ومنذُ ذلك الحين، من سنوات طوال مضت؛ لم أزرْك مرة أخرى، لكنني لم أتوقّف يومًا عن الدّعاء لك.

ذكراك العطرة

قد قُلتَ لي يومًا:

لا بأس أن نيأس،

مَن قال إنّ اليأس عثرة كُبرى

لا بأسَ أن نَسْأَم

لا بأس أن نُحرَم

اليأسُ والحِرمان أوّل الفِكرة

قلتها ومضيت

لظلِّك الأبديّ

أمّا أنا فبقيت أرقب الذكرى

بكيتُ ثمّ قرأت

وبكيتُ ثمّ كتبت

وتتابعتْ كلماتي بعدها تترى

***

رسالة (١٢)

همومٌ خبيثة

أقسمتِ الهمومُ بيَمين غَموس أنها مُفارقة، وأنّها اكتفت من يوم حطّت رحالها جاثمةً على القلب دهرًا طويلًا، أقسمت حانثة أنّها ملّت وأنّها قررت الرحيل مُغادرةً إلى عالم السّعداء كي تنتشي اذا ما أطفأت نور الفرح في قلوبهم، فما حاجتُها بقلوب مثقلة بها غارقة في ظلماتها حدّ الامتلاء؛ حدّ الفناء!

ومازالت تقاومها وتدافعها؛ آملة أن تنقشع عنها!

خبيثة هي مِن نسْل شيطان، بارّة بأبيها إبليسية مثله، تتقرّب إليه بغرس الأحزان في أراض خصبة بالابتلاء قدّ تهيّأت لها، فتودعها بذرتها على وعد بالرّحيل إلى غيرهَا، لكن هيهاتَ هيهات أن تفعل، تتلبّس بثوب الادّعاء أنها سترحل لتتجدّد مع وليدها الذي استودعته أرض القلب، فيولد في كلّ بارقة للسعادة صارخًا مُفسدًا مُجددًا عهدَ اعتقال القلب أسيرًا لديها، وهو الذي للتّو قد أُطلِق سراحه!

***

رسالة (١٣)
أرَق

سُئِلت يومًا عن سنواتِ عُمري، كم هي؟
قلتُ: ألم تُخبِر الرّوح عنّي جواب الاستفهام؟
قالوا: بلى، لقد أخبرتنا أنّكِ..

ما بين خمسةٍ وخمسمائة عام!!
عزيزي المُفارِق موتًا،
أنا لا أنام!
ولا أريد أن أنام
فالنّوم يُغرينا أن نبلغ القمر
يمدّنا زيفًا بالأمل.. بالأحلام
لا أريد أن أحلم
نعم، لا أُريد أن أحلم؛
فالحلمُ يرجع بي إلى تلكم الأيام
لا أريد أن أعود
فقدْ أخبروني
أنّها وما فيها محض أوهام
لا تُطفئوا الأنوار
كي لا أنسج الضوء أملًا من رحم الظلام
فإنّ جريمتي الكُبرى
أنّي ظننت اليأس يقتله ابتسام
أنّي ظننت الظلم يهزمه السلام
ارْحلوا عنّي بكلّ نفاقكم
أوْ لا تتركوني وحدي
كي لا أنام!

***

رسالة (١٤)
أوّل كلّ شيء

عزيزي المُفارِق موتًا،

يقولون إنّ الحُزن مُلهِم!

كذبوا.. كعادتهم

إنّ السعادة البريئة أكثر إلهامًا

ألا تجد الحياة مهما تعقّدت..

رجعتْ إلى بساطة سيرتها الأولى

عرف الحُكماء هذا كما عرفه الأطفال والشيوخ والراضون بالله ربًّا!

يُخلِص القلب لنبضِه الأوّل، والروح وفيّة تجاهَ أوّل كلّ شيء.. أوّل شغف، أوّل ابتسامة حقيقية، أوّل نظرة للحقيقة.

أوجاع اللّحظات الفارقة أنّ ما بعدها لا يكون أبدًا كالذي سبق.. ولا يمكننا أن نتحمّله بذات النفس.

سنتغيّر حينها مهْما رغبنا في ألّا نفعل...

ما يهوّن الأمرَ أنّ تلك اللحظات ليست بالضرورة أن تكون في أوّل العمر فحسب.. فكلّ لحظة فارقة هي بداية للروح ونبض أوّل للقلب!

***

رسالة (١٥)
رفاهية الحُزن

يا مَن فارقتني بالموت،

أحيانًا يكون الحزنُ رفاهية، والسعادة هي أحد المشاهد الأسطورية الحالمة والتي لا نراها إلّا في الأفلام والخيالات فقط.

نعم.. الحُزنُ رفاهية لمَن يملك وقتًا للحُزن، الحُزنُ رفاهية ربّما لشخصٍ لا يُخالِط الأحزانَ كثيرًا، فتسنّى له ذات حُزنٍ أن يعيشه بتفاصيله وينغمسَ فيه، أمّا لو كانت الأحزان تنهالُ عليه تترا لما استطاع إدراك تفاصيل كلّ شيء، لاستغلقت عليه الأمور وصار ينظرُ إلى الدّنيا بعينٍ باكيةٍ لا تلبث الدموع أن تتحجَّر فيها فتغدو رمزًا للحُزن الأخرس.

ألم ترَ أنّ أشدّ الناس حُزنًا هو الذي أغلق الحُزنُ منافذَ روحه فحال بينه وبينَ البُكاء؛ يظنُّه الناظر إليه جَلْدًا وما هو إلّا بمحروم حتّى من رفاهية البُكاءِ تلك!

وربّما رسم على وجه حُزنه القاسي ابتسامة ساخرة تعكسُ ما آلت إليه من أوجاعٍ لا تُحتَمَل ولا يُمكن بكاؤها.

أحزانٌ كثيرة.. كثيرة، تشَقَّقت الروحُ منها وبقي أثر الصدع، ولم يعد يسقيها أو يُداويها انهمار الدمع.

إنّ الكِرَام إذا ما هبّ نسيمُ سيرتهم العطرة على الروح قذف في جوانبها الحنين، تسكن الروح إذا علمت أنّ لها مكانًا تأوي إليه من وجع السنين.

سلامٌ على كلّ ذكرى طيّبة أحسنَ أصحابها في حضورهم والغياب، طبتم وطابتْ ذكراكم..

وسلامٌ على كلّ ذكرى موجعة انصرفت عنّا؛ سلامٌ عليها وأصحابها.. لا نبتغي الجاهلين!

***

رسالة (١٦)
آخرُ فصول الوجع.. آخرُ فصول الرواية

هذه ليست ملامحي، أنا بريء يا إلهي من كلّ هذا الحزن

كافكا

في العيادة، أنتظر الوقتَ الذي يحين فيه دخولي، أحمل جميع رسائلي، رسائل الراحلين جميعهم، كي أنشرها على مكتب الطبيبة، لتتحدّث الرسائل عنّي، بما لا أملك قوله بلساني مهْما أعددت القول وهيّأت النفْس.

في ساحات الانتظار، يُعجبني مُراقبة هؤلاء؛ أوتاد الحِكمة التي تُزيّن تِلك السّاعات فتنزع عنها الملل، بل هُم زينة الحياة وأحد الأسباب التي بها نُرحم فلا ينزل بنا العذاب. الكبار الذين تجاوز عمرهم الستين عامًا، وكلّما زاد عددُ السنوات زاد معها البهاء. أتعجّب لهم كثيرًا وأجدُ راحتي معهم، كُنت أظنّ أنّنا كلّما كبرنا ازددنا ضجرًا ويأسًا، وامتلأنا صمتًا ويأسًا، فما لي أراهم يُشبهون الصغار في حُبّ الكلام كلّما جالسهم غريب لا يعرفونه؛ تجدهم يصبّون عليك أنهار حديثهم صبًّا وكأنّهم يحملون إليك تفاصيل الحياة؛ يُريدون أن يُخبروك في جلسةٍ واحدة كلّ ما عرفوه، فتُطوى سنوات العمر الطويل في كلمات يبثّونها بحماسٍ وكأنّهم يُشفقون عليك من الجهل والحمق وإنْ كانوا لا يعرفونك. يحملون ابتساماتٍ بريئة كتلك التي نراها على وجوه الصّغار، وكأنّ الخنادق المحفورة على وجوههم ويسمّيها الناس عبثًا (تجاعيد) ما هي إلّا رحلة الحياة التي عبروها فطُبِعت على وجه الطفل فيهم. كيف يملكون براءة مَن لم يُدرك شيئًا من هذه الحياة وهم الذين أدركوا معاني جُلّ الأشياء فيها، بينما نمكثُ نحن في تلك المساحات الرمادية بين هؤلاء الأطفال وهؤلاء الشيوخ، لم ينج منّا ويذق طعم السعادة إلّا الذي احتفظ ببراءة الطفل في قلبه، وكاد يُدرك حكمةَ الشيخ في عقله، وروحه الشابّة تعدو بين الجنّتين.

استغرقت في التفاصيل حتّى انغمست في الأشياء جميعها ثمّ فقدت الإحساس بكلّ شيء.

والآن.. أريد أن أجري في مكانٍ واسعٍ خاوٍ لا ملامح له ولا تفاصيل فيه..

أركضُ.. وأركض حتّى يُدركني التعب، لقد أدركني التعب بالفعل.

لقد تعبت جدًّا!

سمعتُ اسمي يُنادَى، ثمّ أعيدَ النداء.. ثمّ تكرر للمرة الثالثة

انتبهتُ على صوت الممرضة تُناديني باسمي، وتُخبرني أن دوري للدخول إلى الطبيبة قد حان، نظرت إليها ببلاهةٍ شديدة وقبضت بيديّ الاثنتين على الرّسائل.. جميعها.

وبذاتِ البلاهة تولّيت نحو باب العيادة خارجة ومن خلفي الممرضة تُنادي: يا أستاذة.. يا أستاذة!

مَن قال إنّ اللامبالاة هي آخرُ فصول الوجع قد صدق، ولكن هل يعني هذا أنْ ينتهي الوجع تمامًا؟

هل يعني هذا أنّه قد آنَ أوان الفرح؟

أمْ أنّ اللامبالاة هي لطمةُ القلب الكُبرى، والتي بدلًا من أن تُعينه أن يستفيق، غيّبته وللأبد في أصفاد اللاشيء.

فلا شيء يهمّ.. ولا شيء يعنيه، ولا شيء يوجِع بعد الآن.

وماذا إن شدّ الوجعُ رحاله بعيدًا بعد طول احتلال، هل يُنادي منادي الفرح منتشيًا؟ أم أنّ المستعمر رحلَ وترك القلب يرسف في أصفاده، والقلب لا يرغبُ أن ينزعها عن معصمه، غارق في لا مُبالاته بها وبكلّ شيء.

أنا موجوعة حدّ التبلّد.. ممزّقة حدّ الفناء.. تائهة حدّ التلاشي..

لست أنا، وها أنذا أتبرّأ من أحرفي التي تُخبر عنّي ما ليس بي وتكتم ما يضيق به صدري!

أحملُ همّ روحي وأمضي وحدي، لا لأنّي مُستغنية؛ ولكن لأنّ ذاك قدري!

***

ختامٌ شعري

الصّمت ردائي

وليسَ صمتي بالعزوف

لستُ أنا ما أكتبه

أنا قابعة خلف الحروف

أهوى كثيرًا عُزلتي

وحدتي

وكرامتي

وعليهم آثرتُ العُكوف

أبوابُ قلبي مغلَقة

لا تنفتح

والرّوح فيّ مُعلّقة

قلبٌ تَرِح

لكنّه قلبٌ شغوف

ألبسته ثوبَ القساوة

خوفًا عليه من الأذى

يبدو قويًّا بينما

باطنُه أسيف

وداخله ضعيف

مهْما قسا.. يبقى عطوف

ويُخبر عنّي

ما ليس منّي

يا قلبُ دعني

إيّاك أن تطوف!

***

وقفةٌ أخيرة

يا غائبًا عن عيني ما الذي يُقصيك؟!

جعلتُك في دُعائي لعلّ الله يُدنيك!

أنا لا أعلم عن السعادة إلّا أنّها حلم قديم لا يتحقق، ووعود أُهديتها فلم تصدق، أتعبتني فصرت أمدّ بها يدي كي أُزيل دمعًا ترقرق، وأجبُر قلبًا تشقّق، فأراها على الوجوه وأكتفي، علّني أرزَق يومًا بها، ولعلّ شمس الفرح تُشرق.

الناسُ تخدعهم الكلمات المسفوحة، يرسمون على آثارها خيالاتهم عن ذات صاحبِها، وخاصّة نفسه متوارية عنهم وربّما عنه، مدسوسة في تلافيف الذاكرة ومُخبئة في صندوق الحنين.

لم تكنْ لتخرج إليهم، وتتجلّى على الملأ، فهي العنيدة الباقية من أثر أيّام خالية، أصدق ما في نفسه، المستعصية على القلم من فرط الألم، رضيت بجوار القلب واختارتْ رفقته وكرهتْ أن يمتدّ إليها بصر أو بصيرة أو تمسّها يدٌ هوايتُها النبش في الأسرار وسبر الأغوار!

هذا الذي نكتبه أو نقوله؛

لا شيء،

لا شيء أبدًا،

الحقيقة تتكوّر على نفسها في زاوية الصندوق الأسود،

في الجانب المُعتم من الروح،

هذا الذي لا يراه أحد، ولا يقرؤه أحد، ولا يعرفه أحد

إلّا الله.

وحده الله.

وحسبنا الله.

تلك كانت رسائلي المكتوبة، والتي أحببت أن يقرأها كلّ أحد،

أمّا أنت يا عزيزي، إليك أُهدي رسائلي التي لم تكتَب بعد، ولن يقرأها غيرك أيّ أحد!

واعلم...

أنّني يومًا ما كُنت أُرسل رسائلي إليك، لم أتوقّف عن كتابتها يومًا؛ غير أنّي صرتُ أُرسلها لربّي عنك !

***

وفي الخِتام

الأصلُ فينا أنّنا نُحبّ كالأطفال؛ لا يعرفون الكراهية إلّا عندما يُجبرهم أحدُهم أن يفارقوا طفولتهم قسرًا، ويُلقي بهم في غمار الحياة بذيئة الوجه، ثمّ نتحوّل عن الحُب إلى الكراهية كلّما أُوذينا فيُشبه الأذى عملية إرغام مُستمرة للقلب أنْ يُفارق طفولته، ثمّ نتعدّى مرحلة الكراهية لنصل إلى تلك المساحة الرّمادية من اللامبالاة أو اللاشيء، فتختلط علينا كلّ الأحاسيس ويصبح من العسيرِ أن نميّز بين الحُبّ والكراهية، مُستنزفون ومُفرّغون من كلّ شيء.

يبقى البابُ الأخير في الحكاية، وهو أوّل الحكاية وأصلها لمن فقه، وهنيئًا لمَن وُلِد مفطورًا عليه فظلّ مستمسكًا به ما أحياه الله، إنّه باب أن تُحب الشيء لا تُحبّه إلّا لله، وتبغضه- إن أبغضته- في الله، باب هؤلاء الذين قرّروا أن ينفروا في الحياة خفافًا من كلّ تعقيد وتفاصيل مُزعجة، بقي الطفل الأوّل في قلوبهم حيًّا لا يموت، محمولًا على كفِّ زاهدٍ في الحياة يعلم أنها بما فيها كمثلِ غمْضة عينٍ وانتباهتها، باب مَن أدرك أنّه ليس في الدّنيا إلّا أن تلقى اللهَ بقلب سليم، ولا شيء يستحقّ أن يشغلك عن مثل ذلك بحب، أو أنْ يحول بينك وبينه بكراهية!

(إلّا مَن أتى الله بقلبٍ سليم).

إذا اشتدّ بك الوجد، وتجدّد عليك ألمُ الفقد، فصُنت لسانك وما اشتكيت، وجوارحك فما أقدَمت، وغلبتك عيناك فانفرط عقدُ الدمع منها لؤلؤًا لمّا بكيت؛

ضعْ يدَك حينها على قلبك، وربّت برفقٍ على روحك، ويممّ شطر القبلة وجهَك، وتَمتِم متصبِّرًا:

***اللّهمّ هذا فعْلي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملكُ ولا أملك*.**

***

رسالة إلى قلبٍ أخضر

يا صاحبَ القلب الأخضر،

لا أحد يُحبّ أن يبقى طيلة الوقت وحيدًا،

لا أحد يرى نفسه قويًّا بدرجةٍ تجعله يحمل الدّنيا على كتفيه،

لا أحد يمكنه مجابهةَ الفتن بلا نُصحٍ رشيد، أو خوض المحن بلا دعم شديد.

كُلّنا يحتاج إلى مَن يشدّ عضدَه..

ومَن كان في حاجة الناس كان اللهُ في حاجته.

هذا الذي نراه حولنا مِن محنٍ هو تجلّيات طول البلاء،

وما خلف قضبان الصدور وخلف الأبواب المغلقة بل وخلف الابتسامات الخادعة؛ أشدّ وأقسى.

كلّ أمرٍ نُقدِم عليه ذو كفتين؛ إحداهما استخارة والأخرى استشارة،

كأنّ الدّعم البشري واجبٌ لا محالة، وليس فيه إشارة لنقص في الإيمان.

طولُ الخُذلان أفسدَ على الناس دُنياهم فلزموا الوحدة مُكرَهين

والوحدة تَكِلُك إلى نفسك التي يُسيئنا أن نوكل إليها طرفة عين.

خلقنا اللهُ جماعات كي لا يبقى أحدُنا وحيدًا كغنم قاصية ينهشها ذئب الوحشة والفتنة والغفلة.

نعم، سنُبعث فرادَى لا يصبحنا سوى العمل،

ولكنْ لم نُخلق لنحيا فرادَى حتى يحين الأجل.

إنّ أصعبَ ما في الوحدة (النفسية) ألا تجدَ مَن يُخبرك أنك على صواب عندما تكون كذلك، أو يدعمك عندَ الخطأ عندما تُخطئ، أن يربّت على كتفك فيهوّن عليك الأعباءَ التي تحملها وإنْ لم يحملها معك، يُذكّرك دائمًا بذاتِك التي تُنكرها معَ الأيام وشدّة البلاء، يؤمن بك وقدراتك وبما يمكنك فعله، أو فلنقل ببساطة: يصدقُ في محبّتك.

***

يا صاحبَ القلبِ الأخضر،

تدثّرْ بصمتك فمَن أحبّك فهمَ معنى الصمت ولم يُحوجك لكلام.

ما أشقى القلوب التي صارت على الأعتاب تتسوّل الاهتمام!

فلتعلمْ يا عزيزي أنّ المحبّ له أمارات تُرى، وكذا المفارق تعرفه ببخل في

السلام.

لم يكنِ الفراق يومًا صنيعة مُحِبّ، وليس لمخلصٍ شيمة الهجر، فإن أُمرنا بالتماسِ سبعين عُذرًا فإنّه في حقّ الحبيب ألف عُذر.. ما بال الفراق يوجِع أصحابه، حتّى قال ابن المعتز:

لست أنسى التفاته حين ولّى والتفاتي وقد نظرت إليه

وكلانا من التأسف والوجد على إلفه يعضّ يديه

الحُزنُ يفجّر الإبداع ينبوعًا في نفسِ صاحبه فالحقّ أنّ الهجر لا يكون إلّا بطَرفٍ عمد إلى التخلّي، ويقول المتنبي:

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ولتعلم أنّهم لم ينصرفوا عنك جحودًا، وإنّما كذبوا في ادّعاء المحبة، ولمّا صدقوا أعرضوا.

***

يا صاحبَ القلب الأخضر،

رائعون هؤلاء الذين أدركوا حجمَ المحبة ولم يَغصّوا الطرف عن التضحيةِ والإيثار، وبلغ مسامع قلوبهم عطاء مَن يُحب في مُقابل أنانية الغير. رائعون إذْ أدركوا وردّوا الجميل بالتشبُّث والبقاء، الإخلاص بالإخلاص، والحبّ بالحُبّ والجزاء وفاء.

رائعون لأنّي أعرف حالهم، وأكتب لك عنهم ولست منهم.

يا أصحابَ القلوبِ الخضراء،

إنّ لأحبابكم عليكم حقّيْن؛ أن تُخبروهم عن محبّتكم، وأن تعاملوهم بمُقتضى تِلك المحبّة.

أوّلهما أمان، وثانيهما إيمان.

وإنّ أشدّ ما يُفسد المودّة البُعدُ والجفاء والشُحّ في العطاء، وأكثر ما تدوم به المحبّة الاهتمامُ والسؤال وجبرُ الخاطر وتعاهد الحال.

صحيحٌ أنّنا نخاف على مَن نُحِب، ولا نُحبّ الذين نخافهم، لكنّ وجود الأحبّة أمانٌ يغلب بأس الخوف؛ وقلّ أن يدوم.

كأنّ نارَ الخوف تُفسد جنّة المحبّة؛ لنعلم أنّ الله وحده أمان الخائفين.

***

إهداءٌ مُؤجَّل حقّه التقديم

إلى هؤلاء الذين كتبت لهم تلك الكلمات حقًّا وصدقًا، بعد أن عايشت بعضها وتصوّرت البعض الآخر، بعد أن رأيتها رأيَ العين في وجوهٍ، وسمعت زفراتها الحارّة من أصحابها، وما التخيُّل عن الحقيقة ببعيد.

إليكم يا أصحابَ القلوب الرقيقة الرقراقة، تلك القلوب التي أدعوكم أن تحفظوها بعيدًا عن أنْ تُغتال ممّن لا يرقبون فيكم إلًّا ولا ذِمّة، وأدعوكم أن تُكرموها بالنّظر إلى الحلال الطيّب الذي يُرضي الله فيها، فإنَّ ميل القلب لم يكنْ يومًا إثمًا في ذاته، غيرَ أنّ القلب إنْ مال عن الصراط تَبِعَته الجوارح لا محالة، فهو السيّد وهُم لا يملكون إلّا الاتّباع، مُضغة بصلاحها يصلح سائر الجسد، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد وصاحبُه وغايته وكلّ شيءٍ من بعد.. وإنّي أعيذُكم ونفسي من مثل هذا.

قد نُصبِح ونُمسي على قدرٍ لا نملك دفعَه، ولا طاقة لنا بالفرار منه، وليس للأقدار إلّا الإيمان بها، والرِّضا عن ربّها، ويُدفَع ما لا نحتمله منها بالدّعاء وحُسن الظنّ.

إذا ما حال بينكم وبين ما تشتهون موجُ الحياة وكثيرٌ من الشواغل مُفرّقة الجماعات؛ صُبّوا البُكاءَ في جوف الرجاء، وقدّموه بين يدي ربّكم في دُعاء، فهوَ أرحمُ بحالكم وأعلمُ بقلوبكم منكم.

الدّعاء رسالاتٌ تصل باليقين، لها أمد، والأمدُ ينقضي لو بعد حين!

هناك اقتباسٌ بديع للكاتب الناقد المغربيّ (عبد الفتاح كيليطو) من كتابه (في جوّ من الندم الفكري)، والذي كان يتحدّث فيه عن (بورخيس):

*يكمنُ الجواب ربّما في عبارة قصيرة تنهي قصةً أخرى لبورخيس. ذات طابعٍ عربيٍّ أيضًا، ((الملكان والمتاهة)) (ضمن كتاب الألِف). تحدّث فيها عن شخصٍ مات عطشًا في قلب الصحراء، وختمَها بقوله: *سبحان الحي الذي لا يموت*. جملة تبدو بسيطة، عادية، ولكن بورخيس أحسّ بالحاجة إلى إضافةِ ما يلي في الهامش * كتبتُ السطرَ الأخير لأنّه غني عن القول إنّ نصًّا إسلاميًّا يجب أن يحيلَ باستمرار على الله*. يقول (بورخيس) ما هو غنيّ عن القول لكي ينأى بنفسه عمّا قال، وقصده: تلك عادتهم، ذلك شأنهم*.

إنّ استشهادي بهذا الاقتباس هُنا إنّما هو لإرساء حقيقة (إنّ نصًّا إسلاميًّا يجبُ أن يُحيل باستمرار على الله)، وتلك غايةٌ يستحضرها مَن كان يرجو لنصّه الأدبي أن يذيع صيته، لا بين الناس؛ ولكن عند الله، وقد كنت أدعو اللهَ مُذ وعيت على الحياة وأمسكتُ القلم أن يصلَ الله حرفي به، وصلًا لا انقطاعَ فيه، وشاء اللهُ أن تكون تلك الرسائل هي أوّل عملٍ مطبوع لي، فجاءتْ كلماتي في آخر الكتاب كرسالة إلى قلب كلّ قارئٍ وقارئة، والذي أرجو من

الله أن تكون حجّة لي لا عليّ.

***